

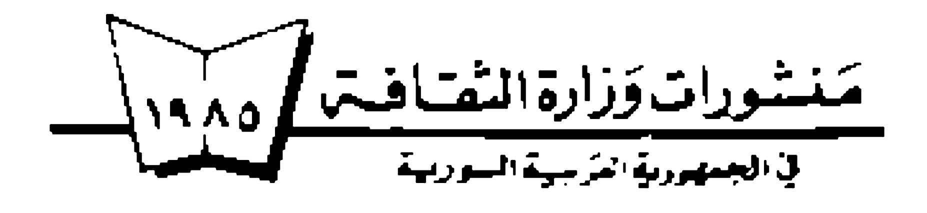
يحيى دريد الخواجة

التمرير

حميد يحيى الخواجة

التمرير

قصص



سلسلة قصص وروايات عربية

« ٦ »

على شاشة الصدر

سحت مقهى استراحة : « محطة الانطلاق » بعيني وأنا أتخفف من محفظة معلقة على كتفي . القيت بعض الكتب والمجلات على الطاولة أمامي . ثم اخذت نفساً عميقاً ، وأسلمت كياني الى الكرسي ..

الدفء سرى قليلا قليلا ، ما تزال انتفاضات : « المدينة » من الزمهرير وسياط المطر اللاذع والرعود .. تعصف بالوجوه المحتبة من الخارج . العيون تلوب لوهلة عند المدخل ، تلتقط مكاناً التقاط الأنفاس ثم تجري تلوذ به .

الشاي له طعم العسل المر . متعب من السفر . أصابني صفاء ذهني مباغت مثل ذلك البرق الذي يملأ الناس والأشياء لحظة يسود ... ثم لزمت شعور من أضاع شيئاً يركض وراءه باستمرار ...

ان بعض الكسل راح يعاشرني بوقاحة . لكنه اختفى.
حل محله الرغبة في السهر ، ومغالبة الوهن ، واستبطان الداخل ..

هذا إيقاع بدائي ضاجٌ من الضيق ، والمشاعر المتداخلة بين الألم وما يشبه النشوة .. فيه توقع من يترقب أن يقبض على فكرة مركزية في حياته ــ اختلج في أقدامي للحظات وهي تدق الأرض بعصبية .

الساعة تقارب الواحدة . هكذا قدرتُ ، دون أن أجد رغبة في النظر الى العقارب السادرة ..

فراغ الشوارع المظلمة معلق بين الحاجبين . ومسايل الماء التي غطستُ بها أو جزتها في طريقي الى هذا المكان تجرف أفكاراً معينة الاحقها في دماغي حثيثاً .

« يا هؤلاء الناس الملتجئون من حولي . اشعر أنكم ضروريون لي أندغم بكم وأتداخل معكم » .. فقراء ، غرباء على الغالب عن المدينة الصعبة .. بعض يصبخ هنا الى الصباح . ثم ينطلق ليعمل حمالاً ، أو بائع بسطة متنقلة ، أو صبياً في حانوت ، او علاملاً في ورشة صغيرة ،

او يدفع عربة صغيرة أو يوزع جرائد الصباح على الموائد ، او يساوم السياح في بضاعة محلية جميلة مثيرة .. وبعض تدفعهم حياة التشرد والتسكع الى سقف هذه الاستراحة حيث تقبل أوامر المعلم الكبير بإيوائهم ما داموا يملكون مالاً يتناولون به شيئاً .. وآخرون من العباد ذكوراً وإناثاً ، قدموا لحاجات ملحة شتى من نواحي البلاد المتناثرة ، يقضون ليلتهم جالسين أحياناً أو واقفين ، ثم يغادرونها مع خيوط الفجر الأولى .. وبين تلك الأكوام البشرية ، يتجول دائماً قومٌ ليلَ نهارَ ، يهجمون على فتات الطاولات لا يخفون جوعهم . فئة منهم تصنع مشهد من غدرت بها الحياة وبها أنفة فتطلب في لطف وحياء شيئاً، أما الفئة الأخرى فمن الشباب يعاني أزمات نفسية حادة او ظروفا لا ترحم . ترى واحداً ينكب على نفسه ساعات ثم يمي الخارج برهة تسمح له أن يخطف سيجارة أو يقتطع لقمة أو يشرب قليلاً من فنجان أو كأس .. تمتدُّ يده الى حاجته وهو يبتسم ابتسامة من يعبر على همه ووجهه ثم يودع الزبون بإشارة لها معنى لا تعدم الإحساس . بتقبل المشاركة والحض عليها .. معظم

المقهى يتغاضى عن هؤلاء لأنهم يتحصلـون على بعض النقود تذهب الى صندوقه ، بالإضافة الى أن لديهم موهبة فنة وإمكانات في جلب الزبائن الأجانـب ، وفي تغطية التعامل معهم ، وحوارهم .

كنت أفكر في كل ذلك وأنا ألاحق ذرات الدخان تصعد في كل اتجاه . تنشقت دخاني بقوة . عبر الدخان تلامحت التي تسمرت عند العتبة الواسعة . وحيدات وأنظار آخرين التفتت الى قامتها الطويلة ولباسها الفضفاض المغاير وسمات وجهها الحادة . التعب أنهكها . ها هي ذي تجد طريقها الى كرسي فارغ قبالتي .

تجاهلتها أول الأمر بعد أن تفحصتنا العيون . حاولت أن اساعدها بنشر سترتها الواسعة على طرف الطاولة . تشاغلت وقتاً بمراقبة قطرات المطر الثقيلة خلال النافذة .. كانت القطرات ترتد عن الأرض عبر الباب كأنما تصطدم بنابض قوي إذ تنهد الى أعلى محدثة رشاشاً ضبابياً يعرقل السيارات ، فيغرق أقدام المراة . كنا نرى بعض السيارات تقف على طوار الرصيف ، تغري فينا إحساس

الترحل . بعض الاعياء الذي أحس به ، سرعان مايزول ـ كالعادة ـ عندما أهدأ قليلاً . هدير العافلة الشعبية مايزال يعشم اذني . ساعات طويلة مرت على ركوبي من محل إقامتي الى العاصمة . الأنثى ترسل تنهيدة وصلت أنفاسها الى وجهي . انزلقت الدماء في عروقي مثل ماء متجمع وجد مسرباً له . أيها الفرح المخاتل ازك في أعماقي ! . المرارة العتيقة العاتية لاتترك غيرها يسود . كم أحتاج الى الحديث معها ! تمعنت في الأنثى . هلا توقفت عن الإطراق ؟! . أنت مشوقة نسرتيك . البرد قرص وجنتيك وجلد ما حول عينيك المتأملتين وشقق شفتيك . شعرك يتشمثل تصوراتي . شعاع وجهك دائخ مثل المصفاف لكن في كل مقلة طير ينهض . جمالك ليس بغتاً طرياً ، بيد أنه يشدني الى أن أرهف السمع إليه واودعه في كياني . أتعلق بك ... لا ادري !.. أصحو بك !. دمي جف في هذا الليل الذي يتساوى في ما بيننا . لا ترديني خائباً . أنت تتململين ! . كأنك تعبرين على سكين تخفينها في صدرك . ها نحن تدثرنا طويلاً برداء الصمت على مقعد الانتظار .. أما حان الكلام ..

يخرج اللحظة صوتي منسكباً طيباً :

ــ أترين ! .. ليلتنا بطولها ، زلزالية ، كدت أقع أكثر من مرة حتى وصلت الى هنا . ماذا نعمل . علينا أن نتحمل الأعباء ..

أردت أن أخفف من معاناة الجو والحياة عليها، واحرك اللحظة المجمدة بيننا . . بدأت تهز رأسها كمن ينوء تحت قيد ، ثم تختصر ردها بأقل العبارات كلفة قائلة :

ــ المناخ قاس .. حقاً .. والليل يمتد . ومع ذلك فإني احب لعب الطبيعة في الشتاء إنه يجعلني متيقظة دائماً . يؤنس في شيئاً محتملا . كلماتها تثيرني . أقول بعد أن ارعدت الدنيا مثل جرار فارغة هائلة الأحجام والاعداد إذ تتكسر على أرض صلبة .

ــ يبدو أن الطوفان قادم ليغرق العالم ..

ــ أحسن ! . (تقول الأنثى اسم التفضيل كما لو كانت ترميه الى قعر) لأخرج لها علبة الدخان :

ــ سيجارة ! . أقدم لك نفسي : « حسام نصر » من

بلد عربي شقيق . لم تمانع . تناولتها بأصابع عشبية تقاوم الجفـاف :

ـ شكراً ! .. « هبـة جناحي » من القبيلـة ذاتهـا .

اترى ! . هنا بعضنا أو هناك . أقطار العروبة غير متباعدة لا في اسمائنا ـ كما يبدو ـ ولا في أشيائنا وأحوالنـا من يدري من أين قدم الآخرون ايضاً ..

اقول لها وأنا أضرم النار :

ـ قليل من التبغ يدفيء القلب . أليـس كذلك ؟

رقصت ابتسامة سريعة على شفتيها . انقلبت فجأة الى انكسار تكوم على جانبي فمها . تصفح الناس في المكان كأنها تقرأ في كتاب . أمواج العينين تخرج من المحجرين ثم تشير بيدها :

ـ يظهر ان هؤلاء جميعاً . يحتاجون الى شيء مـا يدفيء قلوبهم .

تهزه الملاحظة . يرى أنها تجره الى بعض من أفكاره وأحاسيسه .

زمردة هي تخرج من الشدة ، والليل الطويل ..

كلما اعتقدت في لحظة الضباب أن الدنيا بخير،تكشفت لي أكثر قسوة مما أظن . دنيانا تتفجر بؤساً ومرارة،تتآمر عليها جهات متعددة ، وإن بقيت حافلة بالعيون الجميلة العميقة التي تتحدى الشقاء والمحنة .

أنفعل بإيجابية ووضوح كأنني أتلقف حروف ملف أخاف قراءته :

ـ كثيراً ما نزرع الآمال والجهد فنحصد الخيبة . أندرين ؟ . الملاحظة التي أشارت الى هذا الجسم ، أثارت إحساساً يتنامى عندي كلما وضعتُ رحالي هنا مرة . كل أسبوع أسافر من مدينتي الى العاصمة مدة يومين لمتابعة تحصيلي الجامعي . على طاولة من طاولات استراحة هذه المحطة أقضي ما تبقى من الليل ، قبل أن أصل الى الجامعة . أعطف على هذا الجو الرمادي ، وانتظر أتلخص عبر الحياة ـ الموت في هؤلاء المسافرين من جرح الى جرح الذين لا يجدون أجرة فندق يؤويهم . صامتون . متسللون الى قرارة النعاس والتعب عند بوابة الانتظار كأنهم لن يقوموا . تبرز أسئلة عند سكينتي ، أشعر

انني في سبيلي الى طريق مسدود ؛ وسأبقى منتظراً الى الأبد دون جدوى • في وقتنا هذا ، لم يعد يفيد أمثالنا السير المرهق في أي اتجاه•أرى الأصابع المتورمة ،والدمعات المبحرة في العيون ، والأصوات الصدئة ، والاعمار الضائعة ثم انفرد بنفسي • أقرأ شيئا من تجربة الحياة في داخلي تلك التي تسوقني الى اللوبان • أغدو حبيس شيء يهدم ولا يعوض •• شيء أشبه بالهزيمة بالمقارنة مع من لايحزن حزننا ولا يعرف صبرنا على البلوى وتفان السدم في إدراك حاجاتنا ••

انتبهت الى أنني أتكلم بتأثر وصدق ، جسر يمتد بيني وبينها بقوة تنسجه المعاني والأحاسيس في حضرة وجهها ؛ استخرج غفوات التذكر والهواجس وأجدها شاهدة رائعة على كل ما أفضي به •

قبل أن يجيء دورها بالعبور إليّ بحوارها ، طلبتُ فنجانين من القهوة •

يطفر صوتها شجيا يتهاوى • ؛ كأننا ننجس الما من حيث أمسكت به :

ـ وأنا قادمة على الطريق ... راكب الدرجة الثالثة في السيارة بجانبي ابتاع رغيفين من الخبز في وقفة الطريق . وعندما قطف قطعة ملأ بها فمه ، وراحت تصرصر تحت أسنانه . التفت الي : انظري ! .. حتى كسرة خبزنا غدت معجونة بالسوس والحجارة .

أيبقى البحث عن اللقمة مساراً من مسامير تحشنا تدق أعناقنا ولبضنا نولد هماً ، ونعيش هماً في القبيلة العربية .

إنه عذابنا يبدأ من تأمين الرغيف الذي تقوم به عظامنا . هنا أو هناك تحت السماوات العربية تكبر أخطاء ضد إنسانيتنا ، يغلو الهواء والماء والنار والأرض ،ويبقى إنساننا رخيصاً .. كيف يحصل هذا ؟ ! كيف ؟! ...و.. عن الهم . لايستطيع أحد أن يحجب فمه عندما يدخل وانطفأت .. شيء في صدرها وعنقها ينهض اللحظة . تدخل مداراً ينهشها من الداخل وتريد ان تحتمي بالتعبير عن الهم . لايستطيع أحد أن يحجب فمه عندما يدخل استراحة محطة الانطلاق هارباً من عسس الليل في الأزقة والشوارع . كأنها عرفت ما يدور بخاطري . فتبادر بحسرة قائلة :

ـ شيء فظيع ان نموه أنفسنا . طوبى الذين يعلنون عن أنفسهم . فجأة يحضر النادل القهوة . انقطعت اللغة قليلاً ، دخان التبغ يسعى هائماً في ظلال المكان واضوائه ، يمتزج بالهواء والناس . المدخل يؤدي الى طاولات رُصفت على جانبي الجدران من اليمين والشمال ، بينما يشغل الوسط حاجز خشبي يضوي عليه مسند خشبي مسطح يصل طرفاه الى الجدار في الخلف حيث عمق ـ المطبخ المسقوف ، وحيث الابخرة والروائح تنطلق منه .

الاحظ بعض العاملين يبقى داخل الحاجز يقدم الشاي والقهوة والحليب وأنواعاً من المأكولات الخفيفة لمن وقف أو جلس الى الحاجز على مقاعد عالية .. وبعضاً آخر يتناول الطلبات من الداخل ليقدمها الى الطاولات .. وبين هؤلاء وهؤلاء من الزبائن كانت حشود من الغادين والرائحين .. شيء من الشوق والانشغال والفوضى واتساخ الدم الذي يلوي الأعناق يستوفز في انفاس الغالية . الحركة تخف قليلاً قرب المرحاض الملاصق للمطبخ ، كما أن الباب الجانبي في الجدار الشمالي الذي

يفضي الى فنـاء المرآب الواسع حيث ضجيج المسـافرين والحافلات ـ تغلقه الآن يد غليظة •

كنا معاً نشهد الانغلاق ، ونقلب الأكرار • نراها في الاحداق • صديقتي يقول حالها : « كل منا يحمل معاناة » بعض الأحشاء تنام على الطاولات ، تستريح رؤوس بشرية قبل أن تسقط عن أجسادها الى الابـد •

تسحب صديقتي سيجارة من العلبة المرمية بيني وبينها وتبتسم إليّ :

ـ حاولت مراراً أن أغفو على هذه الطاولة أو تلك في عبوري • شيء قاس من حياتي بدأت به الكفاح بإصرار منـذ الطفولة ، يكفني عـن الاقتراب من محطة النعاس المأمولة • المعاناة ، هنا ، تصاعد • تصرخ بهذا ، وذاك وذاك • الوجوه الشقية شاشة تعكس أشكالنا ونحن نحدق فيها •• تضيء فينا الكشف •

تقاطعني وهي توسع من دائرة عينها اليسرى :

ـ ماذا ترى في وجهي ، إذن ؟

أجيب على الفور :

ـ شيء مخيف !

تردف قائلة :

ـ بل نحن معا مخيفان . أليس كذلك ؟ .

واقتسمنا ضحكتين سريعتين .

تقول صديقتي :

ـ لا يمنعني أن أتمالك نفسي من أن أخبرك شيئا عن حياتي . أود أن أسألك ، أولا : « هل جعت ؟ » .

لم يذهلني السؤال بعد أن خبرت جرأتها ومعاناة الهم الانساني لديها .

ـ ببساطة ! . أجل ! . جعت ! . رأيت جائعين وعاشرتهم . في أيام فارطة وصل بي الحال الى أن أعيش بوجبة واحدة . في الامسيات التي يخرج فيها الفارهون وأبناء الحاذقين ، كثيرا ما كنت أقف أمام زجاج بائع ماكولات شهية ، ارقب الناس الطاعمين بحسرة وحقد ثم ألف أقدامي في الظلام الدامس .. وأحلم في صفحات الكتب ..

كنت أستحق البعثة الدراسية الداخلية أو الخارجية ، لم أنل واحدة منهما ، سرقوها مني ، واندفعت مع أمثالي في المرارات ..

رأيت جائعين ، شبه عراة ، حفاة في الشتاء القارس ، يهرعون تحت المطر ، يسابقون الطريق الطويل وسيارات الاجرة المهترئة في عمق قرى الجنوب لقضاء حاجاتهم .. رأيت قامات بشرية تنحني وتغطس رؤوسها في حاويات الزبالة تبحث عن لقمة مهملة .. أنا الذي رأى العذاب .. صدقيني ! ، ماذا أقول لك ؟ أحيانا أسائل نفسي : وما الفائدة من ذلك ؟ ! .

ـ ما الفائدة ! ، تريد أن تقول : ماذا يعني سؤالي ؟، لكم يجب أن تتشبث بالذاكرة ، قبل أن نشرف على الموت والفراغ والعدم الابدي ، أنا جعت أيضا ، وأحاول أن أشق العصا على الجوع وعلى غيره .

عشت في أسرة من ثماني بنات ، فتحت عيني على مقعد كرسي مثقوب الاطار في حضني ، تمسكه أمي بيد وباليد الاخرى تعلمني كيف أدخل عيدان القش في الثقوب لانسخ

سطحه القشي . كانت مهمة صعبة في البداية على الاصابع الرقيقة ، لكنها قست بقسوة الظروف. كانت جهود الاسرة تنصب في جيب رب العمل ، تنتشي بالسمنة ونصاب بالهزل. بقي أبي يهاجر في الاحياء الواطئة والقرى المنفية . يبيع أشياء مما يقوم به أود الجائعين أو تكسو أجسادهم الجافة. يعود أحيانا بعد غياب أيام عن دار لا ترضى الهرره أن تقبع في زواياها ، حاملا متاعا رثا من عالم رث . ومع ذلك استطعت مع أخت لي فقط أن تابع الدراسة من وفر بعض أجرة الكراسي . أمسيت بعد أن حصلت على الشهادة الثانوية موظفة تتقاضى راتبا متواضعا في شركة كبيرة مستغلة . ساهمتي المادية أوقفت جزءا يسيرا من انتشار الرطوبة في بيتنا ، لكن ما تزال المسافة بين أشلائنا وكوة الشمس في الجدار بعيدة .. أبقي زمن لمطلع الشمس ؟!.. أبقي ... ؟ !!

شيء من تموجات التعب والشيخ بدأت توقعه الانفاس . أشفقت عليها من الاسترسال في الكآبة والحزن والقحط . أقاطعها قائلا :

ـ فنجان القهوة برد !

رماد السيجارة ارتمى في فسحة فخذيها شبه الملاصقين مع توهج البصيص . خافت الحرق . تقف . تخرج عن الطاولة قليلا وهي تنفض الذرات ، ألاحظ على الفور طول قامتها وبروز ما اكتنز من أسفلها على الرغم من نحول صدرها وصغر أثدائها . الوجه جميل أو كان جميلاً يأبى الذبول ، فيه تأثير يدفعني الى أن أحميه بين ذراعي وأسد شعره ، فيه شموخ تقدّره لا يسهل انكساره ، ومسحة رحلة خائبة لغوّاص يبحث على الرغم من أسماك القرش، عن لآلىء ضائعة .

.. « أبقي زمن لمطلع الشمس ؟ ! » آسية كلماتك أيتها المتألقة بوهج السهر ..

برقت الدنيا فاختزلت العتمة . ضجّ المطر . تنادت زمامير غائصة في الوحل . في الخارج يُنفخ في صور القيامة .

كثير من الهابطين من طرقات المدن السفلية تنبهوا ..

ثمة احساس جمعي بأن شيئا ما سوف يجرفهم كلهم مرة واحدة . وأنهم وسط بحر أو دمار .

هذا الشعور متقرح من زمان في جماجمهم ، لكنه أشد شراسة الآن .

تقول صديقتي بعد أن أخذت نفسا عميقا رفع نهديها بتوثب الى فوق وأجرى الدم في شفتيها :

ــ على الرغم من أن الحياة ضيقة في المقاهي ، الا أن ما ينكشف من أحاسيسنا أكثر اتساعا من الخارج ... خاصة في مثل هذه الاستراحة .

ــ هذا صحيح ! .

أؤمن على ماقالت ، في الوقت الذي وصلت الى أسماعي أغنية حزينة ، مكان نبوعها مختف ، وان كان المرء يشتبه به هنا أو هناك من حوله . لكأنها خفقان الصدور المتكثفة وراء الطاولات ، لكأنها تضاريس الالم في هذه الجريدة المسائية اليومية الصادرة عن هذه الاستراحة ..

انسان الدروب المتعرجة لم ينصف بعد في الأزمنة العربية ..

الصوت يتدفق في غفوة الليل المهين ..

اي شيء دفين يسلبه الغبطة ويرميه في العفونة !

ثمة رجل في العقد الرابع من عمره في الطاولة المقابلة يكرع الشاي الاسود ، ويشعل لفافة من أخرى ، يحدق في الكاس كانه يرى شيئا يتحرك فيه . عندما أطال التفرس في تفاصيل يملكها وحده ، شعرت أن العالم كله يسير نحو الشيخوخة ..

أنا ظامىء ..

أهملت صديقتي ..

النور قوي ، جلدتها الناعمة الرقيقة السمراء لا تمنع نبض العروق ، أعقاب السجائر في المنفضة كثيرة . أصابعها الشمعية ممدودة ، واحدة منها تحرك الرماد .

أسعل بغتة ، أسعل مرات بشدة متواترة حتى سخرت من نفسي . لدي رغبة في أن نطبق أصابعي على أصابعها ، صديقتي تشع دفئاً . الأغنية الحزينة أكلت ذاتها . يحل الآن حضور لصوت مذياع يرتفع الى مداه برهة ، ثم ينخفض . سددنا النظر الى صوب المرحاض حيث مصدر

الصوت . واحد ارتمى على كرسي متقلب قليلا الى الخلف مستندا الى الجدار ، مدّ رجلين منفرجتين بطريقة غير لائقة مهملة وهو يعبث بالمذياع قرب أذنه. الداخلون والخارجون الى المرحاض منزعجون ومشمئزون ، يمسحون كعوبهم من الاوساخ والاوراق المرمية قباله ، ينظرون اليه شزرا ثم يهملونه ، بين الحين والآخر كان يصلح جلسته باستجابة ثلجية كلما تلقى تنبيها أو توبيخا حارا ، لكنه يعود الى حاله الأول منصتا الى المذياع ..

كان يبدو أن الهواء حوله سميك ، مكظوم ، ومشتعل لكنه لا يبالي عندما تأملته حملتني أفكاري بسببه الى مساحات من الجفاف والقرف والاكتئاب . اكتشفت أنني أقف وأراقب ، وأنا أرسل بصري عبر الرؤوس والاحجام الى هذا الرجل ، الذي يبرز كذبابة لاصقة بباب المرحاض.. أيريد أن يفرغ فلسفته الفطرية ، ببساطة ، في هذا — الطرف ! — من الأرض أتكون حياته أو حياتنا قريبة الى هذا الحد ! ...

أيمكن أن يستدير الانسان بعجزه ، ولا يهمه أن يبقى

او يبادر أي شيء . هل ندخل طقس الارتخاء الى الابد ..
اقرص الشمس والعتمة سيان ! . عبث ! .. هذا عبث! .
احس نشة في صدري . ترتجف حدقتي ، وأبصق في منديل
من الاسهال .. الى أين صارت صديقتي « هبة » اليد
ماتزال ممدودة . ألمس أصابعها ملمس مادة تتلاشى ببطء .
المسام مبللة بالعرق . والاعماق بهية تتوجع من الالم
والعطش ونشوة القبول والانخراط في الوقت الذي
يبدل الخلايا القاتمة .. لن تكوني وحيدة . أمامي أراك
مثل زهرة عباد الشمس . مثلك من يعرف قيمة الحب،
لانك جذر الحياة الذي يأبى الموت ..

الرغبة في تمزق شيء تتحد مع صمت التواصل المتموج
في عينيك . اية روعة التحام في هذا الجسد الذي يحمل
مثل تلك القوية الهائجة الساخطة ! أضغط على الرسغين
وأحرك احتراق الشوق في الزغب المنتشر على الجلد
الساخن .

هبوب انفعالها يضيء حومان نحو ضوء ما ، نحو

ذاكرة لا تعوّق . أقول لها بجرأة تستبد عادة من مثل هذه اللحظـــة :

ــ أنا معجب بك وأرغب فيك .

كانت لهجتي مختنقة ، لكن فيها صوت من يغضي اعترافا الى انني لا تكلم أبدا من وراء شقوق الأبــواب المغلقة ، ولن تفيد اغراءات العالم في أن تثنيها أو تدفعها الى أمر لا تريده .

تجيب صديقتي بعمق ولهفة :

ــ وأنا أيضا .

شيء ما بدأ يكبر في الصدر . يقتحمنا منظر رجــل يدخل من باب المقهى ، رجل مستضعف بدا في فسحة الباب المضيئة أمام الظلمة السادرة كأنه وحش مفــزوع . كان حافيا .

صرخت أعماقي : انه حاف .

ان جبالا من الجليد تدحرجت معه الــى الداخــل . أعضاؤه المكشوفة الملوخة المقرورة تمتص على الفورآخر

نحـي دافيء في المقهى . لم ينتبه اليه أحد أول الامـــر ..
ثم شرعت الوجوه تطارده . ثيابه مهترئة متشكلة من رقـــع
كثيرة ذات ألوان متعددة ، أما بنطلونه ففي جانب يكشف
عن فخذ ممتلىء بالشعر الاسود المربد الوسخ ، وفي جانب
ثان يفضح ـ عورته ـ كاملة ... كان وضعه صادما الى
درجة الارتجاف ومغادرة الكيان البشري الذات الى شيء
اشبه بجهنم ..

بدت العورة موحلة وهو يتحرك الى الخلف خوفـاً
من خدم المقهى الذين هرعوا اليه مصعوقين ..

مقصوص الجناح ، زائغ البصر مثل غياب الوجـــود
في معناه ، لكنه حاد مثل الظلام والأشواك ..

ارتمى من خضم الى خضم آخر مقبل نحـــوه الآن .
لوهلة كانت نظراته ماسية متألقة ينقلها بين بوابة الغياب
والاحتماء بالداخل . الخارج المرعب يغرز أقدامه في الأرض
قليلا . معلم المقهى يلاحظ التلكؤ عنده ، يركل الباب
الصغير الجانبي ، يمسح في طريقه على جار المرحاض الذي

كاد يتعثر به . كرشه يتقدمه وخطواته تقاوم شيئا غير منظور . يباعد الخشم يديه ويصرخ بالعورة :

ــ اخـرج !

العورة تلفع بالقرف والغرابة والخرس والحضور معا . من كان متيقظا يشرب من المنظر أمامه جرعة جرعة. يغمس بعضهم بريقه ويشيح برأسه ويكب على وجهه ، بعضهم يعكس سخرية منه على نفسه وهو يطوي نطفة كمود . المستضعف مع عورته يظهر مثل مارق أمام الصرخة لكنه سرعان ما يطير مهيضا تتلقفه أشداق الماء والريح والنار والعتمة .

يلوح معلم المقهى بيده مخاطبا كأنه على حلبة :

ــ لقد هرب بجلده . هه . ليس تماما ! (يخترق نظره شظايا الخارج) .. لكن هذا أفضل !

صاحب المذياع لصق المرحاض يبصق ويغوص في كرسيه المائل : ساهم وغير مبال مثل رهط غيره . النائمون يتابعون شخيرهم . والساهرون تجري بينهم ابتسامات لم تعد تبين ، أو يمكث تحت رموشهم الاستياء ، يبدو أن

الامر بينهم ، يختلون قليلا ، ثم يجف نبع الثائر في مجرى تآكل الصبر في الانتظار ، والحذر ، والابتلاع ثم يتداعون بأنفسهم في حفر النسيان واعتياد الحال .

قال أحدهم : ـ كان عاريا ، متصلبا من البرد .

ثم حوى رأسه في جمع كفيه .

وفجأة ، طفا الرجل فوق العيون كرة أخرى كما لو كان زورقا من خشب ، يقاوم تيارا جبارا في بحر هائج انجرف الى حيث أبصر .

يعود المعلم أدراجه صائحا :

ـ امسكوه !. اضربوه ! خلصونا من رائحته الكريهة .

ضربات تهرس انفه . يحني رأسه ويخاتل .. وجهه عظمي تكسوه خطوط هائلة من الاعصاب والنزف . أما ما تحت العينين فيغدو اتساعا لهما . هاهوذا ينقلب الى الخلف يد تستند الى الأرض وأخرى تصد الاجلاف . وقبل أن يلقى على الأرض ، رفسه المعلم على خاصرته ، فاستوى مثل ساق شجرة عجفاء وهو يلغط . ثم راحت الارجل تدحرجه الى الفياهب وهو يتأوه .

معلم المقهى ينفض يديه :

ــ حذرته مرارا . الكلب ! .

يقول خادم :

ــ الأحمق ! . حتى وهو يُضرب أصرّ علــى البقاء باسـتماتة . يا للعين ! .

يقول آخر :

ــ عرفنا كيف نؤدبه . نال الجزاء .

ينسحب المعلم :

ــ كل شيء فيه شـيم يقطع الرزق .

أثناء طريقه الى داخل الحاجز الخشـبي صرخ في وجه رجل المذياع مجاور المرحاض .

ــ بقي دورك . اللعنة عليكم جميعا .

يركله عدة ركلات يريد أن يجعله يثور :

ــ من أنت يا هذا ! . بحق الاله اغرب عــن وجهي . ابحث عن مكان آخر قبل أن تقع جريمة .

يتجمع رجل المذياع لا ينبس . كان قد وضع بعض أوراق التظيف الملتقطة من قمامات الجوار والمستعملة مرات عديدة في صحن جاث قربه مثل قبر .

قليل من الذين يفرغون أوساخهم ، يرمي قطعا صغيرة من النقود . أحيانا يتفحصون الرجل ، وغالبا يهملون الورق والقائم عليه .

يقول صوت :

ـ الرجل عتيق هنا .

يردد صوت آخر :

ـ ماذا يريد منه ! ؟ . ماذا يريد منه ! ؟ . فليتركه وشأنه ! .

يجيب صوت بتثاقل :

ـ هيه ! . العمولة ! . أنسيت !

لكأن معلم المقهى يسمع ما يقال . يمسك بالصحن ، يقلبه رأسا على عقب . ثم يقذفه به مزمجرا ، يدور ، ويترك له في الهواء بصمات عجزه المترهل .

لم يأبه رجل المذياع كثيراً . عـدَّل من انكماشه، ما ان يطرق باب الحاجز الخشبي ، حتى راح يفتش بهدوء عن (قطع النقود المعدنية) الضائعة مثل عمره .

ظهر أنه أعرج .

انتبهنا لانفسنا بعد الذي جرى أمامنا . لعلنا ابتلعنا كميات كبيرة من الريق الممزوج بهواء الانفاس والاصوات والدخان . الدليل هذا الجفاف وتلك المرارة :

أعرف أن رفيقتي تتنفس بصعوبة ولهاتها مصلوبة ، تضغط على أسنانها مرتجفة . اليدان باليدين ماتزالان . لكأن اللحظة المفتوحة التي رفعنا غطاءها بحواس متوهجة، وضوض دم جديد توقفت للحظة أمام مشهد ما مرّ .

عندما انتبهنا لانفسنا ، وتابع كل منا الخيط الذي يربط ما بين العينين واليدين ، شعرنا أننا قطعنا أشواطا ، وأن الضوء في دواخلنا وحوالينا باهر فاقع .

عصرنا أيدينا أكثر ، كـان الواحد منا يمنـع فقدان الآخر . كانت المضاعفات النفسية قد عملت عملها في البناء الداخلي ، والاشارات المرهقة نسقت الروح والعقل ..

أي عيش ودبي ينهش بتلك الانياب ! ..

وجدتني أقول لصديقتي :

ـ انسانيا ! . هذا خطأ . هذه بشاعة لا تغتفر ! .

تنتفض .. تعترض عيناها قولي مثلما تواجه السدود سيول المطر الهاطل بغتة وتقول :

ـ انسانيا ! . هذا عزاء مخجل . يعني أن نغسل عيوننا ونصمت .

هل تحتمل وجودك هنا وذاك المطرود في الخارج . هل تصبر ! ؟ ..

هذا البناء يقينا العواصف والبرد الشديد ، وربما الموت الذي لا يعني شيئا مقابلا للحياة لدينا ، لكن في كل لحظة تمر بنا ، يحطم فينا شيئا جديدا اضافيا ، مما نحرص على أن نحتفظ به سالما ..

ما عدت أطيق الحياة مثلما هي ! .

هلم بنا !

صديقتي تسحب يدها . معطفها الجلدي يجد مكانه

على جسدها المستنفر بملاهب عنيفة متواصلة مع لهجتها العقلية القاطعة .. وتستمد ..

اقول بصوت ناحل يتمسح على صدرها اللاهث وشعرها غير المستريح وخدودها التي ترك البرد عليها طفاوات :

ــ لا أدري ! . هل أعود لاقول : ما الفائدة ؟ ماذا نربح بخروجنا الان ؟ ماذا يربح المطرود ؟ لعله الجنون بعينه . أم ماذا ؟ ..

تهتز صديقتي وتبادر الى القول بصوت يضرم ويرتعم:

ــ جنون ! ؟ . أتقول : هذا جنون ! . وهل ماتشهده أمامك هنا ينبيء عن العقل ؟! ..

.. مرفوضون كلهم مرفوضون .

هذا الذي يغوص في المرحاض والروث . وذاك الذي يغني حزينا حيا . هذا الذي يعلق على الآلام . وذاك الذي لا يهمه خراب العالم الذي يبتديء به عادة . هذا النائم وذاك المنتظر تحت سقف ينبش لهما الحياة الحقيقية في الخارج فيألفان الاحتماء وكأنه أبدي ..

لقد اعتدنا الاحتماء بهذا الشيء أو ذاك ونحن نتجرف بوضعيتنا الى الهاوية فأي عيش هذا عاقل يأتمن الانسحاق في القذارات •

ما احس به الليلة يصيبني باحباط نفسي شديد قد لا اشفى منه أبدا • لا بد أن نضع دروبنا بعيدا عن أي تأثير محبط • ان مواجهة الخارج ، يعني مواجهة حقيقتنا في الواقع ، المضاعفات تفجر الحياة فينا وندفع الى أن نصنعها لنا في استعداد متفاقم دائم ، ونقمة صاخبة ••

التيار قوي يا صديقي • لكن علينا أن نقاومه ! ••

الشاهدة الرائعة ترخي لي حبل الاجابة • لا تريد المساومة بالكلام • تهز بفورية وسرعة • تجمع شتاتها • وتتلألأ ذراعها الممدود عبر اللحظة المفتوحة التي اخاف انسدادها ••

يجثم كل ما في الآخر متلهفا • تلمس عيناي مغزى عينيها ملمس الحب والجوى والتفهم ! •

أبادر الى القول :

ـ أنا معك .

البي اليد التي تستهويني . أحمل كتبي ومحفظتي .
أرص خصرها جيدا وهي تداعب أصابعي بحرارة وانفعام
نلقي بأنفسنا أمام العيون الوجلة الهالكة بالصمت والانتظار
نخرج من الباب الذي يخفي التظلم . تصرخ هي وأصرخ
أنا في وجه النوء الخائن الرديء .

● ● ●

قبل الحلم

.. أجل لم يعد يسعني مكان في هذا العالم . صرت أفتقد لذة إطباقة الجفن . بغير توجس . لربما الى الأبد . لا يهمني على الاطلاق ، أنا الفتاة المتعلمة ما قالته المفسرات والفلسفات عن الحياة والموت ، لكن شيئا أعرفه تماما ، هو أنني ما عدت أذوق طعم النوم أو الاستقرار . ثمة شيء تسرب اليه التفسخ في داخلي ، وليلي ثعبان يشد على عنقي .. يعوي مع الموت والسواد في شقوق النوافذ المغلقة . حلقي يجف وأنا في فراشي شبه جثة مخنوقة مشدودة العصب والحواس ، زائغة البصر في لجة هالة التواسة الحمراء ، بينما الاجساد من حولي تشخر وتزفر .. كأن شيئا لم يكن ! .. كأن قراءة الدنيا لم تبدل في حياتهم ! .

ليست « غادة » .. التي عرفت ، صدقني ! . لم أجن بعد . لكن قد أكون في طريقي الى الجنون . بعضهم لا ينفي — يوبخني لقلة عقلي .. ماذا أقول ؟ ! .. شيء عجيب حقا .

كنت عندما أرجع من – الوظيفة – والدنيا حر ،
اظل أرقب باب غرفة أبي المغلق في وجه صخب الاطفال .
ابدا كانت ابتسامته معلقة على الباب . تبتسم كلما تراني ؛
متلملة ، في نيتي ان اقتنص فرصة خروجه حتى استسلم
لنوم هادئ . الآن ، أشهد سقوط الابتسامة مثل ثمرة
ذابلة عند الباب المغلق ، من بعيد .. تتلمس أذناي في
الغرفة حركته ، ضحكته الرنانة وهي تعيد الى بناته الثقة
بالحياة والامل .. والحب . البارحة نسيت تفسي داخلة
الى غرفته لاحضر شيئا . فجأة حوصرت تماما بالجدران .
استمرت الارض تنغلق من تحتي وصوت انهدامات
حجرية في رأسي . أبي بلحمه ودمه استوى بشرا سويا
ضاحكا مني ومن خوفي يسد منافذ الباب .. عاف قبره
بسرعة .. زحف داخ لمسام التربة .. وفاجأني ؛ أنظر
الى وجهي جيدا ! .. هل لون الحياة أو الموت فيه ؟ .

من مدة زارنا أقرباء من بلد مجاور ، وحلوا ضيوفا ؛
كل سنة يأتون .. ثريات الفرح تشتعل آنئذ في البيت
كله . تتحرك جدرانه وعتباته ، فرشه وشرفاته .. متبادلة
الامكنة والحكايات والسهرات والاحلام ، كنا نسهر حتى

الفجر ، وهو يجلس على أريكة يرعى لعبنا وهذياننا ثم يتسم .. يحتسي قهوتـه ويتسم .. تحمر وجنتاي ، ويتسم . كان يدرك انني افهـم ، ويبدي بعينيه سماطلة ابوية رائعة في مثل تلك الامور . كان حياً كما حوله .. ومنذ أيام فقط ، استيقظ باكرا .. أخذ يزرع أرجاء البيت ضاغطاً بيده على صدره .. أمي صرعتها المفاجأة .. سألته لهفة : « مم تشكو ؟ » أجابها : « صدري ضيق . وأنا بسبيل الاختناق . » . عندئذ لم تستطع أمي الاحتمال . أيقظتني بصوت مبحوح باك . أنا الكبيرة كما تعلم ، وأخي غص ، والضيوف ...

أشرت اليه أن أخرج الى الشرفة ريثما اتصل بطبيب . تهالك على الكرسي منحنيا الى أمام ، كأنه يضع قلبه على راحتيه .. الكرسي نفسه الذي احتواه في الاماسي الحلوة ..

لما رجعت بدأت عيناه تزوغان . يكلح ما حولهما وينور . وجهه مصعوق . وحاجبيه الكثيفين اللذين وخطهما الشيب عقدعلى الالم . أصابني فزع ذاهل راح يسحب

على جبينه ايضا .. ارتاع الضيوف .. وهبطنا به الدرج الى السيارة المنتظرة. أثناء ذلك وضعت يدي على قلبه. كان يختلج تحت جلده في ملامسة عنيفة مثل شيء مذبوح . وفي بوابة العمارة بدا أنه يود أن يمزق قميصه . لا أرجو لك أن تجرب معاينة انسان يعلم للحال أنه ميت لا محالة!. وعندما ودعت السيارة بعد أن أصرّ الضيف على بقائي الى جانب أمي ، ولاحظ انهياري ، كان الدرج ، وأنا أطلع ، يبدو أمامي كالجبل . ثمة شيء لجم جسدي ، مرات ، في صعوده . شعرت حقا بأن المكان غريب .. الجدران مائلة، وثمة بقع دم تكبر أنىَّ تلفت ، اقتربت من الباب وهو فاغر الاشداق ، شيء منعني من التخطي . كأنني أحطّ رجلي ، وقد تهت في الفراغ ، في عالم آخر . أسندت رأسي على الاطار ، ضغطه على الخشب كأنما أسعى الى تفجيره .. ونشيج أمي من الداخل المظلم المنزوي .. يرتطم بصدغي كأمواج ساحل ملعون مهجور .

أنت تعرف كم كنت شديدة التعلق بوالدي . أيضا ، هذا المجتمع الذي تعيش فيه ، لايعدل في المعاملة بين البنت والابن . كنت أطل بأبي على الخارج دون خوف : نسهر .

نزور ، نتحدث ، نخطط ، ندخل في حوار ساخن حول بعض الامور .. بيد أن ابتسامته ظلت تثلثني أبداً حدود الفهم ، والاحباط .. باعثة فيّ أشياء من النشوة والحب وحلم الآتي . وجوده في البيت كان يكفل لي المدل .منذ موته وشيء في الخارج غدا في نظري متواطئاً ضدي ؛ في الداخل أنا قاحلة . أنتظر شيئاً آخر كالموت ، ما أنا في الزمن ! . من لحظة الى لحظة ، يمكن أن يحدث شيء ما ضدي ، أن يبدل شيئا .

هو ذا أبي لم تمض ساعة فقط على فراقه ، حتى جاء .. زائراً ميتاً .. هذه المرة ، محمولاً .. الى الوداع. من وقتها بكت الساعات تشدها الساعات في فراغ الزمن وعبثه . سكنت الألم والعزبة . ما عدت أدري ما يجري حولي . ثمة عمر ليس له مكان تدخل فيه إثر فقد عزيز لك ، ولا زمان . تبدو معلقا تفرغ الثواني . تبدو مقتطعا اختصرت الماضي والحاضر ، ثم لاترغب في التحرك هلعاً من المستقبل . لم يأت ببالي يوما أنني قد أدخل تجربة فقدان أحد من أسرتي : أبي . عليّ أن اعتاد التعامل مع

الاشياء والناس على انها راحلة فجأة .. ومع تمني من
خلال اختفائي الى الابد في أية لحظة ..

— ٢ —

.. كان عليه أن يعيد اليها شيئاً ما :

هو : أنت سوداوية . ماذا حلّ بك .

هي : ليكن ! . شيء لايصدق ، أن يضيع إنسان الى
غير رجعةأبدا ، بالبساطة ، التي كنت تراه فيها على
أنه باق الى الابد .

هو : من المهم أيضا في وجودنا ، أن نركن الى شيء ما
في أنفسنا يهبنا الاستمرار .. أحيانا ليوم واحد .

هي : كيف .

هو : ثمة أشياء من حولنا تبعث كل يوم تجعلنا سعداء
في هذا العالم .. بأننا ما زلنا نحيا ، تقاوم معنى رحيلنا
المفاجيء ، ونستلي، بالحب ، علينا أن نخطط على نحو دائم،
وهذا قدرنا ، صورة الانسان الآخر ..

هي : ربما لا أدري . تفنت أفكاري تلك الى أعماقي فجأة . لا أعلم كيف تستجيب بعد هذا الليل الذي قبع في تهي اللحظة .. اتركني الى رغبتي في أن أدخل كل أبواب الماضي فقط .

هو : لكــن .

هي : لا أدري . أرجوك ، لا تقل شيئا يعني العزاء .

ـ ٢ ـ

لم يقل شيئاً . بلع ريقه . حاول أن يهرب من عينيها السوداوين الواسعتين حيث وجد الحزن كمونه الرمادي المجمّر ، وقبل أن تضمر وجهها براحتيها ، راح ينبش هو الآخر : شيئا مشابها دفينا . وهمس في نفسه : « كم يبدو لي هذا الماضي حلماً ! » .



الحارس

حل ، مركز الشرطة الرئيسي في قلب المدينة ، نشاط مفاجيء بارز . منذ ساعات الصباح الباكر ، والعيون تسقط عليه لماعة ، جاحظة بسؤال كظيم توجس ملاحقات وإجراءات متمتة قاسية طالما جرت من قبل في أحوال مشابهة ، حتى لو لم يعرف الناس ، في أحيان كثيرة ، أسبابها ونتائجها . لا عجب ، اذن ، أن يبدو المركز للعيون منتحياً منتبذاً مرتفعاً بدرجات عديدة في وسط الشارع الاول في المدينة ، مثل داء قديم يكبر ويتسع وينتشر بما يتضايق عليه من مرافق ومظاهر . الشوارع المجاورة في الجهات الاربع ترصد ، الآن ، مجريات صارمة ...

حركات ترقب الناس من بعيد كأنما هي ذبذبة لنهايات ذيل تنين أسطوري يشحب إحساسه بما قد يتلمسه بقوة ووضوح عنقه ورأسه في المقدمة . وابل من طلقات نارية .

المسدسات تتوهج تحت اشعة الشمس في القبضات والاجناب .

ها هي ذي اربع حافلات عسكرية من الجيش والشرطة تلجم عجلاتها امام المركز ، فتحك الارض تاركة خطوطاً سوداء مبتورة في جبر المرور ،تحوطها أدخنة سوداء كريهة. صراخات أوامر مشددة ، جعلت البذلات الرسمية تنزلق بعنف ، وتسري تبقع جو المكان محتلة مواقعها في انضباط على طول شريط الشارع من الجانبين .. وعلى منافذ الطرق والمعارج .. هيئات برؤوس مدببة تنقب عن شيء مفقود بالبنادق والانفاس المتلاحقة وهي تعاقر الانتظار . ثمة من يمشط المنطقة شبرا فشبرا بدءاً من المركز جنوبا وشرقا غربا وشمالا . ضباط بمراتب عسكرية سلطانية عالية تربض على عتبة المركز في الخارج ، تمسح المكان بعيون ضارية ، تدخل وتخرج في مدار مابين الى التنفيذ . أحدهم يخبر آخر في صهيل متقطع :

— « لا يمكنه أن يبتعد كثيرا » .

الآخر تقمصته روح قاض وهو يرفع قبعته بيد ويمسح العرق عن جبينه بالثانية ، قائلا :

ـ « بالتأكيد . المنطقة موصدة » .

أردف الاول يمط شفتيه :

ـ « الخوف ، كل الخوف من أن يحجزه احد في مكان ناء . أو يحميه أحد دون أن يعرفه . وقد يعتدى عليه أثيم ! » .

ـ « صورته في طريقها الى النشر ، هذا الصباح . في كل صحف العاصمة » .

ـ « من يدري ! . لعله ، فجأة ، يظهر أمامنا . لقد افتقره سمو" الأمير وهو في زيارة : « عامل المدينة » في بناية ـ العمالة ـ هناك ! . وهي ـ كما ترى ـ قريبة جداً من مركز الشرطة ..

المهم نرجو أنه غادر على هواه ، دون حساب مؤامرة الاختطاف أو أساليب التشفي والتحدي والتذكير والتحقير من هؤلاء العامة السوقة ....

ـ « دعك من هذا . ذهبت بعيداً . قيل : إنه ـ مزاجي ـ . قد يغيب ساعات عن عيون القصر العامر، لكنه لم يحدث مطلقا أن غاب عنه يوماً كاملا . مزاجه في

أن يمتحن من حوله في قوة مشاعرهم تجاهه .. وفي أثر حضوره بعد فترة غيابه تلك   ثمة إحساس جامح بذاته يملي عليه اختبار اهميته ومكانه على طريقته بين حين وآخر .. يدخل في طور غريب .. يدفع كل عائلة السلطان المنعّم الى ترضي خواطره .. جلالته نفسه يباشر ذلك .. يهدؤونه بأعذب الكلام .. يبقون حوله الى أن يطمئن . سموّ الأمير متعلق به أعظم التعلق . قصص كثيرة طويلة تتحدث عن هذا التعلق . انه ، شاغل الجميع بتصرفه وذكائه وسره . ثمة اعتقاد بأنه ، تعويذه ، تمتلك قوة خير وبركة . وهم يحرصون منذ سنوات الا يصيبه سوء .. تصور الفجيعة وهو مختف منذ يومين ! » .

ـ هم الجناة ! . أجل ! فعلها الملاعين . يريد الاشقياء أن يذلوا عامل المدينة ويذلونا ويسحبوا ثقة الامير منه . تصفية حساب قديم قائم ، معنا ومع ـ العامل .

ـ « مع الأمير ومع حراسه الأخصين » .

ـ « أجل ! هو من حراسه الأمناء لا يكاد يفارق سموّه لحظة واحدة ، كما أن الأمير لا تسعده الا صحبته

الميمونة . يا لعزته ! ، سمعوه ينذر بشر مستطير واقع لا محالة ، اذا لم نجده و ...» .

ـ « الوقت يمر بسرعة (يقاطعه) يجب أن نجده قبل حلول الظلام .. والا نزلت علينا الكارثة » .

أخذت عبارات الضابط الاخيرة بحة .. أعماقه المتوترة سلبت صوته النحاسي بعض رنته . يتابع في همس خشن : « لا بد أن نفعل شيئا .. لا بد ! .. » .

وينفتل نازلا درجات المركز ، ويصب صبا في عجيج الشارع محاطاً بمعاونيه وبالجنود . زميله الاول مكث يتأمله قليلا ، يهز رأسه ، ثم يتحول الى داخل المركز .

سيارات المسؤولين تصد أبوابها بعصبية وقسوة . يصعدون الدرجات بوجوه مقطبة شوه العبوس بعض ملامحها ، في حين كافحت بصبر حتى تبصم القدرة والغلبة على القسمات . مجموعات بشرية تحتجز هنا وهناك على طول الشارع وفروعه . بعض الافراد يساقون بوحشية الى داخل المركز ...

« محقق » ممتلىء الوجه بوخزات التلقيح السلطاني يسأل فقيراً من الذين يتقاطرون على أقدام عارية من القرى الزاحفة الى المدينة :

ــ « الم تره ؟ »

ــ « لا والله ! . » . يحلف الفقير .

ــ « كيف ! ومثلك حريص على أن يستأثر بأي شيء.. ويملك حواساً خارقة في طلب الاخبار والوسائل التي تكفيه مؤونة طويلة يعود بها الى « البلاد » . أنت من هؤلاء السفلة الفوضويين المناضلين ! ، هه ! ، هه ! أم سخروك لحسابهم أيها الغبي الفقير القذر ؟ .. » .

يثور المحقق فجأة ، ينهض ، يثب نحو الفلاح ، يلكمه على وجهه وعيونه تقطر شمتاً . ترجرج الفلاح في حين يجمع المحقق رأسه بين يديه ثم يرفعه يقبض على تلابيبه الممزقة صارخاً : إذن ! قل لي من أين لك كل هذا المال .. قل أيها الوغد ! » .. ثم يدفعه مبتعداً عنه وهو ينفض يديه في قرف ...

ـ بعت دابتي ! • انها أموالي ! • بري• . أنا بري• •

يقول الفلاح جملته « أنا بري• » بعـــد أن امـــسك بصعوبة أنفاسه المتلاحقة •

كبرياء الارض في جبّته ، حملت دموعاً الى عينيه وحبستها في آن • يقترب المحقق منه في ملاينة خبيثة لئيمة :

ـ « لنعقد صفقة ! • بامكانك ان تعقد صفقة معنا• ما رأيك ؟ » •

« كيف ! » •

ـ « دلنا عليه ! أين هو ؟ •• لا بد أنك ترغب في أن تسرحك ، حسناً ! • سيكون لك ذلك مع مال وفير وما شئت من عطاءات أخرى • فقط قل لنا الحقيقة ! •• أين هـــو ! ••• » •

ـ « أقســم لك انني لــم أره حتى في الصور • ولا يهمني أمره ! •• » •

ـ « تجرؤ على التصريح بذلك يا شقي ! • » •

« بإذن سيدي •• قصـــدي لا أملك الحـــق حتى بالحديث عنه •

إنه يخص الخصوصيين .. أو تخصونه انتم .. لا ادري !

ــ « ماذا » !؟ ..

تتضع رنة المحقق حنقاوهو ينصب إلى كلام الفلاح المبطن بسريرة سيئة .. تثير حفيظته قدرة أمثال هذا الريفي على المراوغة . وملكاتهم التلقائية على صناعة إشارات المعاني المنكرة الموحية إلى الاستهجان والمقاومة والثورة أكثر منها دلالات الخضوع والتوسل .

يطلب المحقق إرساله فورا الى التعذيب ، ليبدأ مع آخــر ...

ــ ٣ ــ

أثناء الهرج والمرج ..لفت أنظار الخلق في الشارع ؛ واحد . يركض بقوة هاربا ؛ تكون اعتقاد سريع بأنه هو فالتهم المنشودة التي يملي عليها مزاجها معاكستهم. تغلغل متسترا خلف الحشود التي لم تفطن له بعد . تشد مهربا من سيارات الشرطة والجيش . خاتل الأنظار ببراعة لكن دون جدوى . إنها تتجه صوبه . أصابه ذهل وما يشبه الجنون من تيقظ كل شيء عليه بصورة صادمة لم

تـهله أو تهـله لحظة واحدة ، منذ وجد نفــه خارجا من منعرج هادىء الى فــحة حديقة شارع القيامــة هذا . سـياح من كل المناحي انحدر على رأسه ، خـطه بحروف ملهوفــة :

« إنه هو ــ لا بد أنه هو .. إنه يحاول الإفلات ! »

كان كل جندي أو شرطي يومي الى أن يحظى بشـرف القبض عليه . ضابط ربض على مــافة غير بعيدة منه، رفع ذراعيه يصد بعض الاندفـاع وهو يحـلهــم على التفطن والحــذر .

« إياكم وأذيته ! » .

ضـابط آخر نبه قائلا :

ــ « لاتذعروه ! لاتذعروه ! »

بعض ضــباط القيادة في المركز نزلت الى أسفل .

هبت عاصفة ترَجيات بأصوات عالية من المحتجزين في رحاب المركز ..

صـبيان وفتيات ومشردات وعاملات وشيوخ وكهول

من حقـول تجـارب العذاب والمحنة زائغة ابصارهـم صرخوا بأكباد متورمة:

« إنه هو ! . تلقوه وخلصونا ! » .

اصـوات خفيفـة متجهمة خرجت من الأفواه مثل القيء بين الأقدام المتشابكة :

ـ فلتذهبوا معه الى الجحيم . لعناتنا عليكم . سمعتـم أتقاسنا هنا من أجل هذا ... من تظنونا ؟! .. أجابهم شيخ يتقاوى بقبضتيه على عصا بعد أن منعوه من افتراش الأرض يرسل كلماته بمرارة وتؤدة وسخرية :

قطاع طرق مثلهم !»

ثم ارتفعت الأقدام على الأصابع ، وتسابقت الأعناق المتراصة لملاحقة ما يجري في الشارع ... معتمدين بأياديهم على أكتاف بعضهم بعضاً ...

— ٤ —

الملاحقات تأخذ الآن شكل دائـرة كبيرة تضيق

وتتقلص ببطء ، تحتوي في داخلها « ذاك » الذي لم تنفع استغاثته في الإفلات ، فسكن سكون الموج العاتي . هل استسلم تماماً ؟. أحد الضابطين المحذرين لم يخف انفعاله من شرف الإمساك به والحصول على مكافأة مجزية وثقة مدعومة مختبرة ، يخاطبهم بصوت مرتجف لكن متلألىء:

يا للقساة !. اهدؤوا قليلاً !. لا تخذلوه في بذل المساعدة لكم . إنه لا يطيق همجيتكم . على مهل !. على مهل !..

(يتقدم الضابط وهو يمثل ما يرغب به بحركات يبذل جهداً لإتقانها حتى لا تأتي مضحكة) أجل ! هكذا! عروا وجوهكم بالبشر .. ابتسموا بحنان .. أنتم على وشك أن تعانقوه ..

حوصر الآن تماما . الوجوه المكبة ذات أسارير منبسطة وهي تتجه نحوه . الأيادي تدعوه للاحتضان لا للقتل . بعض السيارات العسكرية البعيدة أقبلت من انحاء عدة أهملت وهي تنشج وتطحن الهواء . المحاصر بدا متهالكا ، عاجزاً ، ناقماً ، يريد هزالة من انتفاء حيلته.

عندما وصلوا إليه تقريباً ، كان الضابطان في المقدمة من جهتين متقابلتين ، راحا يتفحصانه قليلاً ، ينقلان نظرهم في دقة بينه وبين صورتين له في أيديهما . الجميع راحوا يحدقون فيه واجمين . وقبل أن يعالجا ترددهما وظنونهما بحسم الموقف بالقبض على المطلوب سمعا صوتاً هادراً يخترق الحلقة البشرية وينبه الآذان الى احترامه ، ما جعل كل واحد يفسح له الطريق ، بينما يقف الضابطان في استعداد ووقار .. يقبل إليهما الآن ، يرد التحية ، يروح على الفور يضغط عينيه في ذلك المطلوب ..

أمامه .. وجه ضخم الفكين مائل الجبهة من تلك الوجوه التي نلتقي بها عادة ، متشردة في الحواري الضيقة ذات المجاري الخارجية .. أو في تلك الأحياء القريبة من المدينة في الضواحي . أشقر لكن شقرته باهتة . إهابه الخارجي أسقمه طول السير والتنقل المفزوع . على ذقنه وحروف خديه توضعت بقايا من غزب أحرقه حر الشمس ورمدته قسوة العراء . يفتح فمه اللحظة قليلاً فتكشف أسنان مثقوبة تزيد من غضب وغيظ

وجه « قائد الشرطة » المنتصب قباله . زبد « المطلوب »
يعلو شفتيه . صدره يعلو ويهبط . كأنه يحس بشيء
غريب فجأة .. زمجرة داخلية تخرج منذرة تشي بتوقع
الخطر وتغلف سلوكاً غامضاً مقبلاً على رعب « قائد
الشرطة » تأخذه رعدة . يخرج مسدسا على طريقة
الأبطال . يتمد خطوة خطوتين . عينا « المطلوب » .دامعتان
ليس من الخوف كما يبدو ، بل من الجوع والحنق
والحصار . .فوهة مسدس القائد مسددة الى جمجمته تماما .
اصبعه يضغط على الزناد . جسد المغدور يرتفع مسافة
متر عن الأرض ؛ ثم يهوي مرتطما بشدة يختلج غارقاً
بنوافير الدم من رأسه المهشم . يبدو أنه مات . لكنه
يتحرك فجأة فتتوزع الحلقة أكثر . يصرخ القائد :

« أطلقوا النار ! »

تتشبث الأصابع بالزنادات . تلمع الفوهات تحت
أشعة الشمس حينما ينهمر الرصاص :

د .. د .. د .. د .. د ...

كل طلقة كانت تمزق شيئا منه تبعثره يترمع به الهواء

بالوان قزح . تتابعت الطلقات بالرغم من أن « الكلب »
كان قد همد من الطلقة الأولى ...

ـ ٥ ـ

سيارة « كاديلاك » فخمة من طراز حديث ، فيها رجل وزوجه ترفل في الدمقس والحرير ، توقفت عند شرطي مرور على رصيف شارع فرعي ؛ أثناء طريقها الى عبور الشارع الرئيسي . في ذلك الوقت . كان يشير الشرطي الى بعض السيارات لتأخذ دورها للتفتيش لدى زملاء له آخرين من الحرس السلطاني والجيش وقوات الأمير الخاصة والشرطة . يدققون النظر في كل شيء . يبحثون عن الكلب الحارس الثمين المفقود .

باحترام كبير اعتاد الشرطي كيف يسلك إزاء تلك الأحجام من السيارات ومن يستقلها من الأشخاص الذين تحميهم السلطة ويحمونها ـ ينثني مطلاً من نافذة السيارة . يتظاهر بأدب جم بأنه يبحث عن شيء ؛ راسماً ابتسامة مَنْ هو مجبر على القيام بواجبه ...

« ماذا يجري هنــاك في الشارع ؟ » يسأل الرجــل المحترم في جدية وأنفة .

« الكلب يا سيدي . كلب سمو الأمير اختطف وهو في زيارة « العامل » . يقول الشرطي . ثم يبد على الرجل والمرأة دهشة من السبب الذي ساقه الشرطي تفسيراً لكل ما يجري ؛ بل على العكس ؛ فان ملامحهما أمنت على المظاهر ، وأبانت عن التبني الصادق للقضية .. لا تخفي خطورته عيونهما ..

« القضيــة مؤسفة » يعبر الشرطي عما يجول بخاطر كل منهمــا .

« اللصوص !.. » يرتفع صوت الثري .

« قبضنا على الكثيرين ممن يشتبه في أمرهـــم من الأحياء المجاورة . تحرينا كلاب المنطقة كلهــا . ضربنا بعض الناس واحتجزنا آخرين في حديقة المركـــز ، وفي أماكن أخرى . أدمغتهم ناشفة . إنها فضيحة أن يسرق كلب سموّ الأمير » يقول الشرطي في تأثر وحنق .

« ياه .. يا لطيف عليهم » تقول الزوجة الجميلة بعد ان تنهدت في حسرة وهي تستبدل « التاء » بـ « الطاء »

« إنه كلب أمريكي جميل ! ثمة كلب آخر من هؤلاء الذين لا يسمون شبه لنا منذ ساعة ؛ وغرزتنا شقرته المزيفة ، فعلقنا رأسه في الحال . أماهو ! ... يا للحارس البهي المسكين ! . آه لو رأيته ياسيدتي . لا بد أنك رأيت صورته مرة .. انظري إليها الآن انظريها جيدا !. »

يقول الشرطي في حماسة . يسحب المرآة دافعا بالصورة من جيب قميصه . تتلقفها بحنان وجلال وهي تدعو زوجها بعينين متلهفتين للمشاركة . يحدقان بها . تصيح :

« آه .. يا .. ما اقسى تلك القلوب !. إنهم لايقدرون .. لايشعرون .. » تصيح هي مرة أخرى. التأثير واضح لا لبس فيه . تغرورق عيناها بالدموع . وجهها نفسه براحتيها منتبذة زاوية السيارة . وقبل أن تقع الصورة من يدها التي لم تصطدم إلا بالورود ، يبادر الزوج الى التقاط الصورة قائلاً :

« ليس غريباً البتة أن تفعلوا كل هذا . مصاب جليل . لكن بحضور الكلب الأميركي الجميل تحسن الأحوال لا بد أن يسير كل شيء على ما يرام » .

« هذا صحيح ياسيدي . »

وقبل أن يكمل الشرطي جملته ، يدس الرجل الباذخ في يده ورقة مالية كبيرة . فيتلقفها بحرارة وامتنان وتطمين على أن « كل شيء يسير ، حتماً على ما يرام » .

يودعه باستعداد وتحية :

« مع السلامة ! مع السلامة يا سيدي » .

ينصرفان .

لكن السيارة ما إن وجدت نفسها في جلبة الشارع الرئيسي ومطارداته التي تأخذ الآن صبغة الانتقام والتشفي ، حتى يظهر لها الاطمئنان عسيراً وغير واقعي . زمر زمر تماوج بعضها يصرخ ويرفض وتتلقى الضربات الموجعة . عيون الفقراء الرمداء،هؤلاء الغارقين في بحيرات الانتظار والغبار والمفاجآت والسباب ، تحفر الزجاج وتصل الى صميم السيارة ، يتلقى داخلها خيوط الأشعة القاسية التي بدأت تنبعث كالقيامة على سحنات الجموع المهللين

والموقوفين على شكل أكداس تضغ الكرة وتتخض وهي محروسة بالبنادق على طول الطريق . كاد يوقف السيارة، يخرج منها صارخا في وجه كلاب الحراسة جميعا : « ماذا تنتظرون ! ألا تحملون ما في صدورهم ، اقرأوا هـذا اللهب المرتفع في النفوس والحدقات !» ماذا تنتظرون ! اقتلوهم جميعا ، قبل أن يقتلوكم ! » يكاد يفقد السيطرة على سيارته وهو يحاول تقيؤ مراقبة هؤلاء المسكونين بالقهر والشقاوة . ثقل كالجبال يحط على صدريهما .

إن صفارات الجنود وخناجر الشرطة يتلمها ويطغي عليها ، اللحظة ، نداء صامت وجيع واحد قائم في أعماق هؤلاء المتزاحمين الجياع باتجاه التمرد والسعي الى أن يكونوا طلقاء . شيء ما ، كالجحيم ، يطلع . لتكسر أعناقهم !.. عيونهم بنادق . صدورهم بيانات . يحس بالاختناق من هذا المكان . تزيد السيارة من السرعة . لكأن حركة الأعصاب تلهب وقودها اشتعالا . رعب جامح يحملها على الطيران .. لكن إشارة المرور الحمراء في الآخر ، كانت قد أعلنت سد الطريق ، ذلك الذي ارادته أن يبقى سالكا الى الأبد !.

الاشتعال

الفيلم نار ، مستفز . أجساد ، ونهود ، وشباب أغنياء تنضح بالقوة والقدرة على اللعب في عمارات وشوارع لاتضيء الا لهم . ما زالت الألوان الساخنة في المخادع الهائجة وراء ستارات شفيفة بيضاء مطرزة بالارجوان تمطى في تلمظ أمام عيونه المحمرة المبقعة بخيالات الجنس المكتوم . قلبه يتدفأ برعدات . ألوان الأغنياء التي رآها باشواقه ، ترسل به الى أحلام تعسة منكودة الجناح .

يحس بأنه شجرة ينخرها سوس ظاهر وباطن ..

خضرة عروقه تذوي مع الايام .. تودي بها فؤوس الناهبين .

هذا النسر داخل كل منا ، كيف لم يذق رفرفته ، طيرانه بعد؟ ..

★

العارات التي ساح فيها حيث التحم ، جدبه البشرى ، مع شارات المطلوبين والمبصومين بالصفرة وشروط الاضمحلال والموت القريب ، تصحو بعنف في الذاكرة .
الطريق الرئيسي في المدينة يرتعش بالحب المزيف والنوايا المتعمية . أشجار الصنوبر على الناحيتين تلبس أضواء المساء من الحوانيت المجاورة المتألقة التي لا يشتري منها الا القادمون من أصلاب سائدة . المارة الفقراء العابرون والعالمون يسترجون عند طرف الشارع المظلم في حديقة عامة مهملة .. بعضهم مزدحم في مقهى ثمل ملتصق بالحديقة .. وبعض آخر يحتشد في استمرار حول بائعي (الكعك المسم) المرشوش بالسماق بلون قلوبهم .
« صاحبه » جانبه تنبه الى منظرهم فجأة ، لم ترق له الرؤية . برم فمه . تكابر . أما هو فقد ابتسم لهم قلبه وحيتهم شفتاه . يود لو يدفع عنهم القروش جميعا ! .
وعندما خلفهم وراءه ، كانت طاقة الحياة على وجوههم المنسوخة ، تنطبع في نيون أصفر ، وقد امتصتها أماسي حاراتهم الخانقة ... رآيتهم يأكلون خبزا واحدا .. ظهروا أمامي كأنهم يلوكون شيئا مرا معافا في أفواههم .. في

عيون بعضهم أطلت قريتي المنفية منذ أزمان ، كوباء ،كذعر، في التواريخ المدمرة ...

ـ ٢ ـ

صوت أغنية الفيلم التي ترددت بكثرة خلف مشاهد الحب والظمأ ، تمح بوضوح في جمجمته : « أنت يا زوبتي أنت يا لهيبي الوحشي ! » واحدة من النسوة المتهاديات المتعطرات من ذوات الكنوز المتحركة ، ذكرته ببطلة الفيلم المغناج التي تبدل ثيابها كما تتلون تصاوير الرغبات.. أين يسير الآن ؟ .. جوعها يسبقه .. تحك ، فجأة ثديها المتحجر بفمه وتتلوى بشبق .. فاكهته التي حلم بها تترسب في فمها .. صدى مثل العواء القديم المرتطم بالطرق المسدودة يخرج من مداخل متشعبة في أعماقه الى أنفاسه.. توقف .. تحجم عنه .. تفطن الى صاحبه .. دائما الشيء ضده .. تحتقره بأصابعها .. بوقاحة على مرأى منه، راحت تلعق .. وتنتف بأسنانها البيضاء الناصعة النصف الاسفل من ذقن صاحبه الحمراء . تنفس على عمق .

انحلالات أشياء صغيرة متشابكة ذات لونيات انفعالية تنغذية اخذت تتسلل الى ملكوت حرمانه .. لذة أفيون الفيلم تنامت ، اتسعت ، تبلورت في حكايات موشاة عن المرأة والفراش .. ولعبة الدخول في اكتناه الخطوط .. ثمة موائد ذات مجد تبسط أمامه عليها خبز أبيض طويل أملس مرصع بوقفة الجمر .. وطعام فاخر يتناسل من ظهور فجائع هؤلاء الذين لا يأكلون غرض اللحم .. يشم في رياض اللحظة ، عرق أفخاذ النسوان في أمريكة .. تنعقد أيضا في سحنته سجلات الدعارة والفراغ والثرثرات البرجوازية والنهم الى العاهات السرية والصعلكة في محطات العالم المنجبة بالبورصة المبللة بندى هذيانات أماسي العشق والجريمة .. « رياض السيد » حكاية جسور للرغبات المستحيلة لفئة دون فئة .. أذكر الفتيات الناضجات القاصرات وغير القاصرات اللواتي غرر بهن في غرفة كأنها استطالة ولدها شموخ الفيلا الانيقة العريقة ، تستدير حتى لتبدو كمن يدير مؤخرته لامثاله من المغلوبين . أذكر : حضور السيارات للمعروضات والمفروشات الثمينة والاصص المنجبة والاوراق التي لا تنبت في فلوات العطش

اذكر : الاضواء الملونة الخافتة تتناوب في اشتعالها وانطفائها ضافية على اللعبة المزورة لبني جلدته ، الصورة المقصودة الملائمة .

اذكر : كل شيء وأذكر : قتلت الحلم مليون مرة ! . اشتهيت آن أملك غرفة نحيلة .. ومثل طائر غريب مهدود غامض انتظرت خلف الغيوم بوابة صحو .. زي التعب والاضمحلال لم يرق لامرأة واحدة تقبل بي . عاش رياض حياته دائما . يعيش هو اوهامه .. كل هؤلاء النساء له وحده .. هذه الغادة الكاعب المتعطفة .. وتلك المرأة ذات الكفل . يقول العائد :

ــ أشعر بالوحدة والسأم .

مسكين . هيج الفيلم أشجانك مثلي ، لكن على طريقتك . يضيف العائد :

ــ حمص مدينة مغلقة . انني لم أعد اكتفي أبدا .

يا للشكوى التي لا تسعها الارض ! . انقلب الجو عليك . مثلك لا يرضى اذا لم يضع في حسابه تحركات الكواكب ، الشمس ، القمر ، الورد ، الشجر كل ما تعلق

الابصار والافئدة ، وما تحمله موجات البشر السريعة من نوبعة البهجة . مسكين !. كان أبوه يرسل له اثنين ثلاثة.. في الشهر .. لا أدري أنا متى بدأ حلمي العقيم في شراء قميص جديد مشجر مثل هذا ! . أو ساعة يد مثل تلك ! . مثل هذا الشيء أو ذاك ! . اليوم قبل ساعات قلّب لي مجلد حفظ صوره في أمريكة . أشار الى واحدة عارية الا من ورقة التوت باصبعه الناسية . كانت بضّة .. احتواها في صدره ..علقها في الهواء على ذراعيه .. سابقها على أمواج الشاطىء مرة .. وتمشيا متجاذبين ممزوجين بالرغبة مرة ..

يقول الموسر :

ـ هنا ، لا يمكن أن تعيش حياتك ! .

كاذب أنت ومبتز ! . يشعر بكراهية شديدة تجاه هذه الكتلة ذات الحذاء اللامع .. لكأنه عقرب يمنع عليه الكلام والعفور .. لكأنه جدار يعلو بينه وبين من تنهمر بهم الشوارع بلا عناية . يحجب عنه بامتداده وصلده وجوهاً نبيلة تتعفن جراحهم في ظلال الأضواء تحت التجاعيد .

ها هي ذي تتعطل قليلا حركة صالح . رجلاه النحيلتان مسموعتان على الأرض . يلتفت اليه المتشامخ ويشعر أن الخلل ليس في وقع سيرهما فقط . لكأن شيئا خشنا من شعيهما ينط ويقع مدبباً بين أرجلهما معا . يلسع كل منهما الآخر في شزر . يحدث صالح نفسه في همس :

عشت حياتك دائما هنا أو هناك . كل شيء مرهون بمالك التليد . الفقراء وحدهم لايملكون حياتهم . يعيشون بينكم ويتحركون مثل مخلوقات حقيرة . بعيون مبقورة تراقبونا . تنكرنا عيونكم وتنكركم . تحت مجهر المحاسبة تسقطونا اذا ما استطلنا قليلا أو كثيرا . القيتم باللهيب الى أعناقنا . لكم غلافكم . علمتونا أن نقول:

شيئان لا يأبه بهما أحد : « رذالة الغني ، وموت الفقير » ..

يا لها قصة مجتمع راح يعطي فئة متحكمة بحياته كل شيء تحت تأثير مسوغات طبقية مدعومة منذ فجر التاريخ .

فلتعيشوا وحدكم ..

ليحترق العالم ..

— ٣ —

هجمت على انفه فجأة رائحة عادم سيارة شاحنة ..
أسود لزج خثر ومختنق .. ذكره بذلك العطن الذي
يتلبس رئتيه حالما يدخل بوابة الحوش المهمل المشبع
بالرطوبة وعفن الحشائش والنفايات حيث غرفة متقاوية في
بناء قديم مستهلك في حي « باب الدريب » في حمص .
ثمة حصير وبعض الادوات اللازمة ، أعمار متفاوتة فيها
أبوه أمه .. اخوته الصغار .. أخواته . بقيت الغرفة
تضيق وتضيق بهم ، حتى محت حلمه في أن يستقبل ذات
يوم كائنا اضافيا يعيش معه علاقة انسانية وعاطفية لا بد له
منها . مساحة نومه في النهاية ، حددت له على أرض الغرفة
بدراية وعدل . وحتى لو توفر له المسكن أومكان ما فمن
أين له أن يتزوج ، وهو لا يستغني عن ثمن لفافة اللحم
التي يقدمها له « رياض السيد » الصلف الآن :

يطنه صوتـه :

— خـذ ! .

كأنه كلب جائع ترمى له قطعة لحم لا يستحقها .

يتساءل السيد في خبث :

ـ ما بك ساهم . بالقطع أنت جائع ! .

يفكر : « أي جوع هذا يشدني وراءه » .

تصفح وجه « صالح » نظرة منحدرة من الزهو . أما أحداقه هو ففيها نبض حي مذبوح على نطع الايام المهدورة بالحرمان .. نبض حرص « صالح » بكل قوته ألا يحس به صاحبه هذه اللحظة .

يتلقى اللفافة منه . يعد أن تعيهما يستطلعان وجوه الزبائن من العمال والموظفين الصغار والتلاميذ وبعض صبيان الدكاكين والفلاحين وبائعي اليانصيب العابرين .. ثم ثلة قليلة من المنعمين تشير من خلف الزجاج وتأنف الدخول . أبناء التعب يلتهمون ، بصمت ، لفافات من الطعام رخيصة . ثم يتيه صاحبه في كلامه :

ـ كيف تتحمل أحشاء هؤلاء هذا الطعام اللعين ! ..

فجأة تكر أيام صالح الفارطة الى الوراء مثل بكرة .. مرة اشترى له رياض الطفل الصغير في المدرسة تلك اللفائف غالية الثمن .. التهم بعضها ، وأخفى الباقي لاقرانه القرويين

حيث التجؤوا معه الى غرفة حقيرة عند قريب من قريتهم
يحدب عليهم حين حرمهم الظلم حتى من مدرسة متواضعة.
يشتد ذاك الاحتراق لايام أربعة لم يذق فيها التلميذ الذي
يكبر طعاما بعد أن سافر الجميع الى القرية . فاحتجبوا عنه
وانحبس عنهم . الثلج عطل المواصلات التي تجد الخيبة
انتظر طويلا زوادته الاسبوعية من أسرة قروية متكاثرة ..
تبلدت مقلتاه قبل ان تصل أرغفة الخبز اليابس والجبنة
المملحة الجافة من براري الرثاء . أذكر : كسرتها بالمطرقة ،
بللتها بالماء والدمع .. ذكرى لن اهبها للريح .. لن أجعلها
تشد على عنقي اللحظة .. لن أرثيها في هذه الافواه الجائعة
المتجمعة أمامي .. لقمتنا الحقيقية يسرقها أوغاد الارض
الذين يهدون يقتصون فيها النزهة أو فرصة التجهم
بعصا القرصنة . لن أنسى نظرة أم هذا الثري ، وهي تأمر
الخادمة أن تقدم لي شيئا من الطعام كلما لمحتني على درج
باب العمارة الكبير .. أو حين تستجلي حالي مثل غراب
يختض قلبا .. مثل قطة جائعة منكفئة على سقاء اللبن ،بينما
سيدها يتعجل سحبه من تحت مخالبها . كيف استطاع أمثالنا
امتلاك ارادة المتابعة على التعلم .. الصبر على النار ..

الثلج بين جدران رطبة متداعية بلون الدمن .. على الزمهرير الذي يعثر الهشيم وألواح التنك التي تـدفتحة باب الغرفة فنجد اجسامنا المتجمعة فجأة في وجـه اتقـاح اماسي الصقيع والمرارة .. جاع الجائع وما يزال جائعا. في الوقت الذي لا يني فيه هذا الخفاش الصلاق مالئا ليلي الطائف في فلك احبائي من أهل الطين ـ يحمل السوط علينا بعينيه .. يـومنا الاحتقار وينفخ صدره .. يعلن مثل قلعة مدعية الانتحار الابدي لاحلام التجاوز .. أكل شيء على حاله ؟ ! .. ألم تدر الأرض بعد !؟ . ايجـد حقيقة قائمة ؟ .. هل تضيع الاماني الجامحة في مطـاف شارع المقبولين ؟! .. أتضيق اللافتة يوما بعد يوم ؟!.. أتعود قبيلة الصارفة ! ؟ .. أيبقى هـذا اللعين يـسعى ويلهو !؟ . جاع الجائع ومايزال جائعا .. اللعنة ! ...

كان مايزال يمسك باللفافة بعصبية وحنق .. اكتشف لوهلة أنه يعلق على وجه « صاحبه » شتيمة بعيون نارية من وقت أن سخر هذا المركوز أمامه من أحشاء الكادحين. يبدو كل منهما على وشك أن يبادر بكلمة أو فعل ما يضنيه الا يفرج به من نطاق شعور ضاغط او حبس آلام مكبوتة.

فجأة ، يقذف صالح باللفافة على طاولة قريبـة منـه ..
يضغط .. يمص السـيد بلقته .. تهزه ريح غامضة عاتيـة
مثل غصن قوي .. وجهه ينز بسائل أسود .. بعض الافواه
هنا وهناك توقفت عن الحركة .. ثمة أمور مريبة تحصـل
على السؤال .. لكأنهما عبوتا بارود تنتظران الشرارة ..
يبتلع السـيد الرق المتبقي في الحلق .. يقبل الاهانة كمن
وجدها حلاً مناسبا أو مفضلاً في الوقت الراهن . يصطنع
اللامبالاة .. يوحي بصورته ان عليهما أن يفترقا الآن ..
لم يبق لديهما ما يقولانه .. يترك ما تبقى من اللفافة في
سلة المهملات ، وينطلق ..

صالح يجد نفسه مدفوعا وراءه .. يكاد يحاذيه ..
يتوجس « رياض السـيد » .. لم يكن ليظن باتباعه بعـد
كل ما حدث .. هل يود الاعتزال ؟ شيء قديم . تضمـره
الصدور .. لم تمحه سنوات الابتعاد الطويل التي أملـت
عليهما صعوبة في الحوار .. ثمة حساب لما يمكن أن تكبده
تلك السنوات في كيان كل منهما .. يفكر السـيد : اصرار
من صالح على شيء لا أدرك كنهه يتعجل نيله مني .. إلام
يهدف .. الهوة عميقة .. لم يبق ما يقوله أي منهما للآخر .

منذ زمن حدث هذا ! .. والآن ، الهوة تتسع أكثر ! ..
كل برهة تمر ، وانا مع هذا الشقي . لكل جحيمه .. وبقي هذا
اللعين جحيمي حتى بعد سفري الممتد .. من يصدق أن
يتصل عذابي به ؟ !! أينغص حياته مثل هذا المتسول ؟ .
ظل دائماً منذ الطفولة يحسب له حسابا من نوع خاص ..
يعيش في داخله ويفرخ مثل ديدان الأرض الناشطة تأكل
متعه وراحته وصبواته .. الى هذا الحد تصل الامور مع
هذا الممسوس صالح ! . لماذا يصر على متابعتي دون أن
ينسى .. مر زمن سحيق لم تسأله أمه : « كيف حال هذا
المسكين : صالح » . كانت لا تمانع في رفقته ، مادام يبدو
مثل كلب ابنها الذي يحرسه .. ويمنع بعض أسنها على
الطعام الفائض الذي يرمى .. لكن منذ حكاية تلك
« الرحلة » العمياء .. لم يكن ليرغب ، لا هو ولا أمه ، في
ذكر صالح الفقير .. لم تكن تعلم أمه انه لبث يعيش في
داخله كل تلك الايام . يخاف منه ، ويحسب له حسابا
غامضا ينطوي على القلق . واليوم ، بعد عودته القريبة من
أمريكا ، حين زاره في القصر ، لم يفجأ به تماما . كان ينتظر
ذلك في حدسه .. ولو لم يسأل صالح عنه لسأل هو عنه

بنفسه . احياناً يمتلك القوة على التهاون بالخوف بمواجهة
الخوف . لكأن الاقتراب منه يجعله اكثر تحسبا للحيــاة
وارفق به من كابوسها المتمثل فيه . لكن عــرف ضعفــه
اليوم ، وخطل هذا الشعور..تأكد من ضرورة نسف علاقة
صالح من حياته الى الابد .. واستعداد قوة اضافية علــى
ذلك ... يعرف أن الذي حاول خنقه ذات يوم وهو صغير
في رحلة مدرسية ، يحاول : اللحظة ، أن يفعل شيئا شبيهاً

— ٤ —

اثناء تلك الرحلة المدرسية ، استسلم العديدمن الأطفال
الى نوم ممتع في سرائرهم في الفندق ، بعــد يــوم حافل
بالبهجة واللعب الشاق . واحد منهم بقي جفنه المفتــوح
يطل على صمت الردهات والممرات وأصداء ضجيج نهــار
طفولي فارط حائم مشتت في الليــل والزوايا . حكايــات
الطفولة ، وأحاديث أعماقه تبدو له بعيدة الاصرة منقطعــة
الصلة عن كل ما يجري حوله . لكأن كل تلك الافراح التي
كان أترابه يغرقون فيها حتى الثمالة ، وتبدو شيئا لازبــاً
في حياتهم يجهدون في تنويمه ويمعرون في أدائه بطلاقــة

مدهشة . أما ، هو ، فلم يستطع قط أن ينافق حزنــه . لم يعش طفولته قط . وجد نفسه يكبر عاما في كل يوم يسـر جم .. شيء كبير ثقيل لا يرحم طفولته أملى عليه أن ينفذ دائما سلوكا كبيرا في حياته .. وجد صعوبة في أن يتعامل معهم بالروح المقبلة ذاتها ، بالبـراءة الخالصة ، بالاشـياء الصغيرة المتـأثرة بهم وحدها . في الرحلة ، بقـي يراقبهم أكثر مما بدا أنه يلعب معهم . وكلما اتسعت الابتسامة على وجوههم السـينة ، ازداد تطلعا الى داخله .. وكثيرا مـا يسمع بين حين وآخر وهو في حالة كآبة وسهوم وانبهـار بألوان الثياب الزاهية ، أصوات المعلمين تدعوه الى اللعب! العب معهم يا صالح ! . لم يلمح نظرات معلميه الانيقـة المستريبة تظهر له الحقيقة بعفوية بلا قناع : انه من فريق آخر لا يؤبه له .. من فصيلة أخرى .. غريب .. يمشي بطء استجابته ، ويحتاج الى الشجاعة من أجل الانضمام اليهم ، لايمازجه هذا الصفو الساطع فيعيون هؤلاء الصغار المترهلين في خدودهم وفي قهقهاتهم .. لا يقدر على فهـم لغة افراحهم كما لايقدرون على فهم لغة انطوائـه وكربه

ولا يهم أن يسكتوا طويلا لكي يفهموا

هكذا كان الامر دائما .. هنا عبر تجربة رحلته هذه ، وفي تجربة المدرسة .

يجد صالح الصغير انه يكاد يقطع غطاء النوم . تبرق عيناه تحت ضوء متسلل من النافذة . راح يراقب بحمق ذاك الذي كان يأكل على عتبة قصره ، كما لو انه من كوكب آخر يغط في راحة تامة . تذكر ثيابه الجميلة الجديدة ؛ طعامه عزجاجات شرابه المثيرة ، حقيبة أشيائه التي لاتنفد؛ دلاله الذي يحسده الجميع ويتملقونه ؛ قطع الشوكولاته التي تسيل على جوانب فمه ، الوجه الممتلىء عافية حتى ليتمزق . بدأت اهتزازات معبرة تنتقل من داخل صالح الصغير الى عيونه تحاكي ليله الموتور . في ضوء خافت راح يتسلل الى سرير المدلل « رياض » ، لهث في السكون المخادع . هو يديه الراعشتين الجائتين على عنق الوجه السميك الذي لم يعرف القلق ضغط بثقله . تأوه المدلل . جحظت عيناه وقبء جسده . حاول أن يفلت من الخطاف ـ نجح لبرهة . صرخ ملىء فمه وهو يتقاوى واقفا على السرير . صلبه صالح بيديه مرة أخرى وقبل أن يصعق تماما ، استجمع الآمر ما تبقى من طاقة غريزة البقاء لديه،

ودفع (صالحاً) الى الخلف ، ثم تلفت هاربا صارخا باكيا يعدو إلى أن تلقفه الأيدي وتحميه . في الوقت الـذي صحا رفاقه في الغرفة وخارجها حيث تقاطروا فزعين نحو مصدر الصوت المفزوع . توجهوا ماخوذين الى الطفل الذي يبدو مثل طلي مسن ، التقطوا إشارته نحو بـاب غرفة نومه وهو يصيح : « خنقني صالح ! مكوتني ! » .

ها هـو ذا صالح منتبذاً زاويـة الغرفة ، انتفخت أوداجه ، انسحب الدمّ من عروقه ، وازدادت معالم بؤسه، لكن عيونه تنطق بشيء من التشفي ، لم تنفع معه كـل الأسئلة من الشفاه المقلوبة . وقبل أن يتفقوا على تأجيل ضربه وعقابه الى الغد ، لقط مشرف الرحلة مسوغاً استقبله الجميع بترحاب وتثاؤب معاً .. قال : « هذا الطفل رأى مناماً . » هل يعقل أن يعتدي على من دفع عنه تكاليف الرحلة ! وأحسن اليه دائما ! .. » وقتئذ ، بطل العجب ، واستراحوا .. رياض المتأذي وحده رأى غير ذلك في عيني صالح الذي لم يحر جوابا ...



ظلت صورة الطفل المدلل مضحكة لمدة طويلة كلما وقعت عيناه على الطفل غير المدلل . نقلته عائلته الثرية الى مدرسة خاصة استثنائية وهو في المرحلة الابتدائية الاخيرة . كبرا . التقيا ذات يوم وجها لوجه . وجد السيد رياض نفسه يرد على الترحيب . تساءل في سره : هل يمكن أن يكون قد نسي فعلته ! ! أما هو فلم ينس شيئا . ظل صالح يكبر في اعماق رياض تماما كما يراه الآن ..

قبل أن يفترقا أخبر رياض عن استعداده للسفر الى أمريكا قصد الدراسة ووعده بمراسلته . تراسلا باقتضاب مرة واحدة . ثم انقطع بينهما كل شيء .. بالحري قطع رياض اتصاله . لم تنفع رسائل صالح لتقصي أخباره في حمية مجنونة . صار يمزقها قبل ان يقرأها ، وتضيق مواجهه . ثمة ضد في حشاشة صالح ، وجع ، في خلايا ، دفعاه دائماً الى تقصي أخبار رياض . يشدانه الى جوه او عالمه ، رأى هذا العالم وكرهه ، أراد اختراقه حين حجبه .. واصبح يعي حقه فيه . الآن يدرك صالح من خلال مسيرة حياته وما شهده لدى أمثال هذا الذي يملك ـ كل شيء ـ : انهم لا يمكن أن يستمروا على حسابهم ، هكذا ، الى

الابد . ثمة شيء حقيقي ينتظره عنده .. يخصه ؟ يخصهم أسوار غامضة مظللة بالاشجار .. او لدى فئة جديدة من تجار البناء خائنة تسرق وتبني هنا البناء الحديث المتد هنا عنده ، أو هناك عند أمثاله .. في قصره المنيف داخل على مساحات واسعة خارج المدينة . وعندما كان يصر بالسابق على ان يقذف بالرسائل اليه ، كان كمن يحرص على اصرار الاحتفاظ بالوجع أمام التعالي . « رياض السيد » عاد من أمريكا خالي الوفاض الا من المتعة والمال . حين التقيته في قصره بعد غياب طويل ، فكرت باننا كبرنا جدا ،

كبرت نظراتنا . شيء حرج ، بغيض تفاقم في كل منا أرادت ان تخنقه مظاهر كاذبة ذات مسرحة طفولية مسترجعة . لم يخف رياض عجبه أمام الباب ، أحس صالح أنه يود كرد فعل اولي ان يخفي نفسه بعصا سحرية ثم رسم حاجباه علامة استفهام من رغبتي في علاقة قائمة . علاقة غير متكافئة بالطبع . لكن صدري النحيل الجاف الساحق ردّه عن أية مبادرة سيئة أو تعجرف قد تلغز به العيون . رحب بي بسرعة . أمسكني بحرارة مصطنعة الى

غرفة الصالون . امتني على اني زميل الطفولة في المدرسة،
كنت اظهر في حاشية القصر المنيف اللالاءة مثل غلط ما في
لوحة .. مثل خط مشوه نافر في نطعمة مزخرفة من
« الارابسك » . وفوق طبقة سميكة من الحنق،والمحاصرة،
والقرد ، تصنع الرقة في معاملتي ، عندما خرجنا معاً .
حاولت بقوة ان أخفي رغبتي الجامحة بركوب سيارة من
تلك السيارات الرابضة مثل اسود مدللة أمام باب القصر،
لكنه لمح ما أخفي ، وعاجلني بسهم ابتسامة متشفيةقائلا:
« التمشي على الأقدام ، مفيد وجميل » .

اثناء الطريق ونحن في الاتجاه نحو مركز المدينة ،
فكرت : « إن هذا الاختناق الخاص غير الإنساني الذي
يشكله عالم هذا المدلل . فلا يسمح لغير أمثاله من
اقتحامه او التمتع به . لا يمكن أن يكون إلا في مجتمع
غير انساني ركيك .. يحتاج إلى آلة مطهرة ، ومغيرة ،
باتجاه العدل ، وتنسف المرتكزات العفنة الى الأبد . في
صغري لم ينس هذا المدلل ان يقدم لي هدايا على طريقته
في إهانة امثالي والتلذذ في رؤية الحاجة تتجول في عيني .

في إحدى المرات . تسابقنا بين جدار وجدار في باحة المدرسة . تفوقت عليه في السباق . أصابه جنون من ضحكتي ومرحي . ارتمى علي مثل كرة من منحدر . أمسك « ببنطلوني » وقال اخلعه يا كلب أليس هذا من عندنا . انظروا جميعاً !. إنه من عندنا . شحاذ ويريد أن يبقى » . وقتها خلصت نفسي منه . وانزويت متأثراً ! مرعوباً بعيداً عن الأنظار ، ولم أعرف كيف انتهى الدوام . حتى ؛ غادرت المدرسة الى الغرفة الصفيحية في بيت القريب . خلعت البنطلون ورميته مثل جمرة محرقة في اليد . أهملته أياماً ، ثم عدت محتاجاً اليه بدا كل شيء بيننا كأن لم يكن من قبل . شيء بريء طفلي كان يلعب لعبته فينا ، لكن لم يلغ إحساسنا الحقيقي . أحياناً كان يغلب البراءة يتفجر في سلوك عدائي واضح ، وصدام لا يرضى المهادنة ولا يعترف بالطفولة التي تجوز الحواجز . هو يمثل دور أبيه الإقطاعي المحسن المتعجرف، وأنا أمثل دور الفلاح الفقير المحتاج ، الثائر المتوفز . وكان يسره ويقر عينه أن أحميه من أذية الأطفال ، لكنه لم يكن ليقر بضعفه أمامي .. كيف وهو يدفع لي هداياه

وفروشه وطعامه ؟.. قبل وقت في القصر الذي غادرناه ،
احضر لي هدية ملفوفة بورق مزخرف رماها بين يدي
كمن يقول : اليس هذا شيء هام أتيت من أجله..رفضتها
كانها تهمة . استنكرت وجودها بين يديّ في إباء . رأيت
تجاعيد تنتحت حول عينيه وهو يشهدني ، متبرماً بها .
انتفض جسمه بسرعة . وارتسمت على سحنته « لماذا »
بعفوية وسرعة ، ثم ما لبث ان عاد الى صلفه وتكلفه ،
يجاهد شيئا في داخله بابتسامة صفراء . حمل صندوق
الهدية ووضعه جانبا وحاله يقول : « فيما بعد !. »
الهدية ذكرت صالح الحسن بالتسول . أما زال يبدو
متسولاً ؟. اللعنة !. الهدية عندما وقعت بين يديه ردها
مثل لعنة أيضاً . هل يبقى الدّوْران على حالها ؟ هل
المال الذي يتفوق ؟ ألا تبعث على الكبرياء مسيرة حياتي؟
اصطخب قفص صدري وأنا أتسائلك دائما فيما حلّ صمت
ردي. جلس رياض السيد مطرقاً ، حاول أثناء إطراقه
أن يسرق نظرة من الوجه المنتصب قبالته كيف . كانت
طيوف الخجل والقهر التي سقت مقلتيه دهراً طويلاً فيما
مضى ، قد تحولت ، اللحظة ، الى اشتعال مندلع مفرقع

متسلط .. فكر صالح : أي شيء هذا مقابل بؤسي وفقداني . كم من البؤس دفعه أمثالنا عبر التاريخ حتى تقلبت أنت وأمثالك بهذه النعيم . وتأخذوا هذا الدور الذي منحناه لكم .

ما تبغيه عندكم بحجم الاحلام ... رياض يعرض اقتراحا يخلصه من جو القلق والصمت والحرج : « ما رأيك ! لنذهب الى السينما ! » . أوافق . ويختال رياض بجانبي عبر شوارع المدينة الحبلى بالقطعان .. تماما كما يختال هذا بسيارته وسطهم ، وذاك بما يحمل في محفظته من أموالهم ! في هذا الزمن لايمكن أن يربو مال بمثل تلك السرعة المذهلة والاكداس المقنطرة إلا بوسائل مستغلة بشعة وبعقلية وحشية ..

هذا الحانوت وذلك المعرض يعرف تماما بدايتهما المتواضعة ، وهم الان من أصحاب الملايين في زمن قصير في غفلة عنا . من يساعدكم على هذا . أي قوة تتآمر علينا . ماذا تبقى لكم أنتم أيها الناس ؟ . اللحظة تحركت نفسي وأفكاري نحو شيء يتوضح يتألق كما لم يحدث لي من

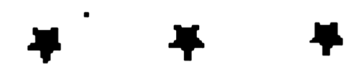
قبل . إني في حالة جهد نفسي وعقلي غير عادية . كأني
أقبض على شيء ثمين ، تعمل نفسي على مسح ما علق عليها
من غبار وابراز ما نقش عليها من كتابة مصححة عبر الايام.
لكني أشعر أيضا بأنني ، نملة ، ضعيفة وحيدة تتمايل في
صعيد هذا الشارع الممتد المقفري . رياض السيد لم يعد
ينظر الى صالح مطلقا . كل همه أن يتخلص من صالح في
صمت وحذق . في لحظات كان يشعر بالقوة على الوقوف
لتوديع صالح بصورة واضحة والاعتذار عن علاقة غريبة لا
تستهويه والخلاص من هذه المطارده غير المعلنة .
وليحدث ما يحدث بعد ذلك ، لكنه كان يؤجل مواجهةذلك
في كل مرة . لم يبق لديه ما يقوله حقيقة . يشعر كأنه تحت
وطأة كابوس . كيف يحدث كل هذا ، ولماذا ، كيف سمح
لنفسه أن يخرج مع هذا المأفون ! بدأت العمارات الضخمة
تتحول بفعل الظلمة المكثفة الى أشباح هائلة يأخذ بعضها
بأيدي بعض ، متعاضدة ، والدم يسيل من أشداقها فوق .
أحيانا حتى تكاد تهوي . أنفاسها تتلاحق . ثمة سيارة
فارهة طائرة انحرفت من بعيد الى الناصية فجأة ، وهرست
مهروما للمرة الاخيرة . غضب صالح من هذا الشارع

الذي يخفي الاوضار .. لكأن شيئا لا يحدث .. حدق في عيون أشباهه بطريقة جنونية وهو يوغل في معانيها يحترق بما احترقت به . حالته النفسية تنجلي أكثر عن هذا الشيء داخله . « أين المنقذ ؟ . هذا السكون القذر ! » . صرخت أعماقه . « أين المنقذ ؟ . هذا الشارع يجب الا يتصالح ! » صاحت أعماقه المتوترة مرة أخرى . هؤلاء الساكين يجب أن يفعلوا شيئاً آخر غير التسكع والانتظار، في وقت تبكي فيه وجوههم ، ينظرون الى الفلاذ ، وهم بلا غلال ... ان يكسروا طوق السكون الذي يتلمهم . يتآمر ضدهم ويلعب فيه غيرهم لعبة الثراء والحظوظ . أتسيرون هكذا موزعين ، مغشوشين بان هذه حياة ؟ ا بصقة ! أأنتم بشر ! ؟ . هذا ، الشارع يجب الا يتصالح! . أحس بعري ، بحرق يحرق ويبدد ، بلقيا كشف نهائي وحتمي . إحساس نفسي ضاغط وفزة . نور مبهر مشعشع من « نيون » محل كبير يسرق الانظار والاموال بلا رحمة لكأن موجات هذا النيون المتناوبة بين الانطفاء والاشتعال هي موجات غرفة نفسه اللحظة . وفي كل مرة يكون فيها الاشتعال يكشف به عن ضر لحق به أو حادثة مرة

ترسبت في الزوايا . حادثة الفندق تطفو على السطح قوية .
صراخ رياض الطفل يعلو باشداق مغموسة بالشوكولاته
والزبدة والكاتو ... تستخرج أفكاراً مرعبة لديه
فبدا مسعورا يلاحق كتلة لحمية . رياض ! . أين رياض!
الظلمة ، والاضواء المزيفة ، الناس المسحوقون
المتسكعون ، السيارات المتدفقة بالعطور والأبهة ،
الحوانيت التي تمتص فلا تشبع ، الطرقات التي غدت صلدة
بلا قلب .. حركة الحياة هذه المخلخلة بأبراج النور — كل
ذلك يتآمر عليه وهو يتطاول بقدميه على الناصية يبحث
عن رياض الضائع مثل هبة دخان . يحس بأن شيئاً يساوي
عمره انسحب منه على حين غرة . ترنح عالم من الدحر
والوهم فيه ، أحس بشيء من التخاذل كان
عقرباً لسعه ونفثت سمومه في دمه . انتفض . لايريد ان
يتخاذل . عنف ، فوران ، مختزن قوي يعصر خلاياه مرة
واحدة . يجب أن يختار . يجب أن يختار هؤلاء أيضا
لينقذف شيء ناري يشعل هذه الحياة اليابسة الآسنة حتى
تلد أخرى جديدة . هؤلاء ، إنه يعرفهم . يحتاجون الى
فتيلة فقط . ماذا يخسرون باختيارهم الثورة .. لم يبق
لديهم مايخسرونه .

حوله عراء فيه ظلمة ونور .. نور وظلمة فقط لاغير..
في نفسه نور وظلمة يتناوبان بوتيرة عالية . امتلأ كيانه
بشجاعة فائقة . النور يغمر قلبه . التفت حوله في حب .
يحل في قلوب المتعبين . مظاهر الهدوء أشبه بسكينة البحر،
لاتعني أبداً أن الحالة مستقرة . إنه يعرف هؤلاء . في
كل منهم « رياض السيد » من نوع ما يعذب ويؤرث .
يدري ما يجري في أعماقهم في الخلوات . يصنعون شيئاً
بأعماقهم في الخفاء . يا أهل الفاقة ! . ليمسك بعضنا..
بأيدي بعض . لتنشئوا حوارا جديداً بقوتكم ! . ففي
مثل هذا العالم النادر الذي تستحقونه . يجب ان تنالوا
حظكم وفيراً منه ، يجب أن تسود فيه تلك القوة . فعل
واضح راح يحط بقدميه وهو ينقل بخطواته باتجاه صنع
حركة هذه القوة . لاينقصه شيء لاشعال الفتيلة مع
رفاقه وتفجيرها في تلك الأغلبية الصامتة . الجميع لم
يعد ينقصه الحقائق والاحلام . يرى اللحظة تلك الجموع
الثاقلة تهتز كالريح الصرصر تهب كالاعصار ، تملأ
الشوارع وتتعاون مع كل من يقف ضد ظلم الحياة والتعب،
وترفع العدل وتسقي الامل في عيون البؤس الذي طال..

تهدم القصور وترفع الأكواخ الغائبة .. يتساوى الناس
كما في طهر الزمن الاول . من هذه الليلة هو ببيله
ليبدأ شيئاً مع رفاقه . خطواته كانت تشدها في الظلام
أصوات غير مبحوحة بفعل البرد وتأثير هواء مصباح
الكاز المدخن . ثم تعالت ضحكات لم يلدغها بؤس .
صخور وقلاع محروسة بكلاب آدمية تشابح أمامه عبر
السواد تأخذ صورة ملامح وتقاطيع « رياض السيد »فثير
به جيشان الغضب المركز يخفه وراءه بعيون واسعة ،
وصوت أغنية الفيلم يعلو بنغم جديد : « أنت يازوبعتي!»
أنت لهيبي الوحشي ! » .



مساعد الناس

اللحظة ، أتجمع على نفسي من البرد القارس : منتبذا أصغر زاوية من مقعدي . أتحايل بأفكاري على كآبة منبثقة بقوة من أعماقي . تملكني لبرهة رغبة السير تحت المطر حتى المنزل ، لعلني أقلقل هذا الكرب الغامض واشتت رؤى سوداء تملأ راسي هذا اليوم . لكن رغبة أخرى مقابلة انبثقت وددت أن تطغى ، وهي تستعجل أحدا يجلس بجانبي ، عسى أن ينبعث الدفء في قلبي المرتجف .

ها هي ذي حافلة حي « الميدان » في دمشق تسير متمايلة كعجوز هرمة ممسكة بخاصرتيها . يرين على جوها الداخلي وجوم قاتل ، وفي العيون جوع الى مأدبة الغداء . الاطفال في المقعد الخلفي تفتر ثرثرتهم شيئاً بعد شيء . تتعثر الحافلة فجأة ، ثم تقف ، مثل دابة عشواء ذات آلية ضامرة . تندفع من الموقف جموع غفيرة لتثبت

بمه . لم يكن هناك موضع لغرزة إبرة ، ومع ذلك فالزحام يشتد ، وأشكال الناس تموج وتتكاسر . في سري يسرح الكسل ، لكن روحي تستحيق بسرعة من أترتها مشفقة، وهي تشهد تلك الجموع الكادحة ترتص كقطع اللحم في العلب . تحت العيون المرجومة . أرسلت خيالي في أعماق هؤلاء الناس الذين أرافقهم كل يوم . القلوب تنبض بمصير واحد . تلتقي بارادة في هذا الحيز المهمل الضيق من العالم ، في صندوق حديد مهترىء تتحاشى السيارات الفاخرة المتكرشة السير في طريقه ...

قام من بجانبي . جلس آخر كهيف في صدره عجرة عليمة . كان يسألني من حين لآخر عن المواقف التي وصلنا إليها ، رافعا الي عينين ، زادني جمرهما المترسب المطفأ قطوبا وحنانا . أقمع رغبتي العتيقة في التأمل كيلا يتسرب مني موقف نزولي . أرمي بنظري الى السوراء، أعود ألتقط الوداد من بعض الوجوه التي أعرفها أكثر، تتحدث بصمت عن حال ، تواجدنا التعس في هذه الحافلة. أشعر بارتجاف جسد الكهيف المسكين . قبل أن أعود الى انزوائي ، يعلو صوت حار عميق مختزن من نهاية

الحافلة « صوت يعوي بألم كان تجسيداً لرغبة في الصراخ لدى الاغلبية ضد العفن والاهمال والطلول ...

ـ يارجل ! (يعني السائق) . أغلق الباب ! .

ثم يتوجه الصوت الى الناس مستنجداً وهو يتهدج:

ـ أغلقوا الباب ياناس ! . نكاد نتجمد ! . اللعنة على عمرنا . موتة ، وعصة قبر ! ..

يرد قاطع التذاكر بلهجة حانقة :

. لا ، لن يغلق الباب ! . تريد أن نختنق ! ؟ .

ساد صمت حذر . التفت ورائي تلقائياً صوب الباب الخلفي . بصوي يرتد وهو حسير . يصطدم بالجموع المتمايلة على هزات الحافلة المتدحرجة في دروب منكوشة مترعة برامات الماء . دمشق القديمة على الجانبين تدهمها الارياح وهي تجأر .

يجيء الصوت متشظياً داخل ايقاع المحرك المطقطق:

ـ وماذا يعني هذا ! ؟ .. لابد أن تفكر بحالنا من يتسلم القيادة لايدير ظهره الى الناس . ما بقيت رحمة؟!.

يقول الصوت عبارته الاخيرة ، ثم يأخذ يحث الناس

على الابتعاد عن الباب . يجعل بعضهم وراءه ، ثم يساعد الباقي واحد تلو الآخر ليجدوا مواطىء لأقدامهم ، وينادي

ـ ها هو ذا الباب حر . أغلق الباب وافتح نافذتك!. اكتف ! . الطمع ضر ما نفع .

السائق لم يرد ، قاطع التذاكر تنطع في الكلام وهو يخشخش بالنقود في جيبه الكبير أمامه .. يقول :

ـ لماذا تتدخل بما لايعنيك . لو تركناك على قارعة الطريق لسبتنا وتنمت لحيتنا . ألا ترى ما يجري في الخارج . أنت الذي لايفكر الا بنفسه ، بعد أن استقر بك الحال ..

الصوت يمتلك القدرة على الجدل دون أن تتبدل وتيرته . الاذان صاغية . مثل هذا الجدل يشغلهم دائما. يقول الصوت :

ـ الحافلات كثيرة . كل منكم يود أن ينال حصة الآخر . ليست القضية في الشفقة على الناس . ان السير في الخارج غدا أفضل ألف مرة مما نحن عليه .. قل لي : من يضمن سلامة الحافلة الآن . لديكم لسان يدافع عن الباطل

دائماً . دائما . الغريب أن كل هؤلاء الناس قطعت السنتهم أيضا ، فلم يعبر أحد عن برمه وضيقه .. انظر الى الوجوه، استح واغلق الباب فلم تبق لك حجة . الاصوات تتابع فجأة :

ـ أغلق الباب . ألم تسمع .

ـ هيا . الناس ماتوا من البرد .

الاصوات تحولت الى صرخات غاضبة . أغلق الباب من عند السائق . يتنفس الناس الصعداء . بعض وجوه النسوة الجميلة ترفع مناديلها وتبحث باعجاب عن مصدر الصوت . بعد ان شاركت في الهجوم على السائق وقاطع التذاكر ، كان الالم يغور في صدري . كنت أفضل ان تبقى الوجوه هكذا للحظات ، لكنني أدرت رقبتي بعفوية باحثاً عبر الرؤوس والاجساد عن الرجل .

كانت الحافلة تفقد الركاب الواقفين توازنهم . بدا الصوت على هيئة رجل ضئيل متمرد . تقاسيم وجهه حادة ، تشعر باحترام قوي يمنعك من التحديق في وجهه طويلا . لايفتأ يتحرك . يكلم الناس بود . احببت أن أطيل النظر اليه وهو يحكم غطاء رأسه الابيض . ويمسد

لحيته البيضاء ، ثمة ضوء يصدر منه تستقبله تمسك بعض الوقت ، ثم تتركز حوله وفيه مهابة التحفة الثمينةالقديمة.

الكفيف بجانبي يعلق قائلا :

ــ هذا رجل قلبه لله . يدفع عن الناس الظلم . كل واحد يجب أن يكون كذلك . لمن ندع هؤلاء . لاأحد ينصفنا . أكثرنا ضد . الى أين وصلنا يا أخي !

قبل أن أخبره تحمحمت المكان المتقب الماطر . سحنة رطوبة الزجاج ، أقول لـه :

ــ الى باب المصلى . هل أساعدك ! . .

يخاطب الكفيف السائق بدلا عني :

ــ على مهلك ! .

صوته ضعيف متردد . لا أدري كيف وصل هـذا الصوت الى أذن الرجل . فسبقني الى الصياح :

ــ على مهلك . على مهلكم . افسحوا له . « حسان » ينزل ! . لم يكتف الرجل بالتنبيه ، بل يبادر في خفة غير متوقعة ممن في سنه الى تغطي الرقاب والامساك بذراعه.

يكاد يحمله . قاطع التذاكر يطلب الخلاص . السائق متجهم لم تعد له نيّة في الدخول مع الرجل في مناقشة أو تبكيت . يمر بخاطري ، وأنا أشهد تعاون الركاب لسلامة الكفيف ، حوادث مريعة نتيجة رعونة بعض الحافلات. رأيت ذات مرة شيخا يهصر عظامه إطباق شقي « كماشة» الباب . وقتها صرخ مفجراً كل آلام عمره الدفينة كما يصرخ الرجل الآن .

ــ لا أحد يحب المساعدة . ما هذا الزمن العجيب ! . فقدنا قيمنا وشهامتنا . لولا أنني صرخت في وجوهكم لما مد واحد يد العون ! . هل تدرون ؟ . خيل إليّ وأنا أنظر الى عيني الضرير المفتحتين المغلقتين ، أنه يرغب ، والحق معه ، أن يكون الناس جميعا عمياناً ، وأن يظل هو أيضا أعمى . ما رأيك يا شيخنا ؟ .

يلتفت رجلنا الى رجل دين بزي معروف ، يبتسم الشيخ . يصلح من عمامته ، يهز رأسه باشارات غامضة ، ينطوي رجلنا على قدرة هائلة على التأثير ، كنت أنظر اليه طول الوقت . قلّ الزحام . تنبهت الى أن بعض الناس

انتقل الى جانبه ، حتى غدت القافلة مقسومة الى مجموعتين زمرة قرب السائق لا يعنيها أو لم يعجبها الامر ، اثنان أو ثلاثة منها مرتبطون بعلاقة مع السائق ، تفوح من تبادل نظراتهم المداهنة الملأى بالتنافق .. وزمرة اخرى دفعها الفضول ، أو الاستئناس بحديث تناقلوه كثيرا فيما بينهم يجري الآن بصوت عال موقظ على لسان الرجل . الوسط خال الا من امرأة جلبت الكثير من خضار السوق وضعت بعضها في حضنها والآخر على الارض لصق مقعدها ، مما سبب ارتباكا لكل داخل وخارج . كان يبدو على قاطع التذاكر الحنق ، كلما حدجها ببصره منبها الناس الى مواقف النزول :

— « قرشي » ، « جزماتية » ، « طالع » ..

الرجل مثل أفعى نشيطة اخرجت لسانها يخاطب الشيخ رجل الدين :

— لمَ يجب أن نحب الناس ؟ لم علينا أن نشد من رباط الحب قبل أن تدهمنا داهية لا تبقي ولا تذر ؟ الا يكفي ما آل إليه حالنا من انشقاق ومعاملات باطلة .

بعضنا يأكل بعضه الآخر . كيف تدين ندان . أما آن الاوان أن نفهم ونعي . أي مستقبل اسود يتربص بنا جميعاً . نحن فقراء الارض يجب أن نصف متكاتفين ضد أوجاعنا .

يوافق الشيخ المعمم :

ـ هذا صحيح . فسد كل شيء . استغفر الله العظيم .

يتابع رجلنا في كبرياء :

ـ انا قوي . أترون ؟ . (يضرب على صدره مرتين بقبضة حديدية) انني أعيش على الرغم من كل شيء . مرت بي ظروف علي مواجهتها وقد واجهتها . هل تدري ما هو عمري (يخاطب الشيخ) . حسناً .. عمري ثمانون عاماً . هذه الحافلة أصغر من أحد أولادي ..
والآن ، لماذا أنا قوي شديد ؟ ..

يضحك الشيخ ويلمح بعينيه الحضور : يمازح الرجل:

ـ ثمانون عاماً يا عبد الله . هذا لا يصدق . أنت شاب اذن ! .

ـ حسنا . لا تخف ! . ثمانون الا سنتين .

يبدو ، اللحظة ، على قاطع التذاكر ، امتعاض عظيم وهو يسند جنبه على ظهر مقعد في الامام . يسدد الرجل اليه بصره ثم يستأنف :

ـ هل تذكر يا شيخي : الامبراطور غليوم.. امبراطور المانية عندما جاء الى دمشق ؟ . خرجنا وقتها جميعا لنراه في المهاجرين .

لا تدري في أي مكان . رأيناه في المكان المسمى بـ « المصطبة » . هه ، لقد كان يربض على مصطبة فعلا . والآن أظنني صغيرا . عمري ثمانون ، لكنني شاب . هل تدري لماذا مرة أخرى ؟ ..

الشيخ يبدو عليه الضيق . ثمة شيء يشغل باله . ابتسامته المرحة تزايل . يتحرك بسرعة بارادة قوية . يد طويلة آلية تمتد الى كتفه ، تجذبه بصلابة قبل أن يغادر .

ـ لن تغير مكانك أو تذهب حتى اكمل حديثي (يقول الرجل) .

ـ وما له ! . حسنا . كلي آذان صاغية . تفضل ! .

الشيخ يحدق في الوجوه التي تبرز له ثم يطرق.
الجميع يود أن يسمع المزيد ، وهم يدركون درب حافلة
حي الميدان الطويلة . ثمة نطفة لدى الناس بدأت تكبر ،
ترغب في أن تنصت الى احد يتكلم بصوت عال . كلما راح
يتفوقع على نفسه يستنكر بقلبه وهو يشهد الحياة بالمقلوب
دون أن يفعل أو يقول شيئاً.قوى الهيمنة العربية في هذا الزمن
العربي المكور تبالغ في لعبة التكميم الى أقصاها . خطاب
الاحتجاج من قبل الرجل بصورة علنية وقحة يغدو
مستهجناً في زمننا . أن يباشر الحوار بلا مقدمات مع
الناس في بطن حافلة محتشدة مهاترة وابتذال . كنت تشعر
وأنت تراقب الرجل انه مغتبط باحتشادهم حوله ، وأن
تواجدهم في الحافلة فرصة لا تضيع لاعلان صوته ، وانه
يريد أن يحرض بذور حياة جديدة ، عرف أنها الاصلح عبر
تجارب عمر مديد ، وأنه يمتلك القوة على المبادهة فورا .

يرفرف الرجل بعينيه ويقول للناس :

ـ الآن نبدأ فقط . أنت فقير مطحون ! . وأنت شبه
شحاذ ! .وأنت مستور قليلا ، غدا تتكشف وتبين مؤخرتك.

وانت لا تملك دواء لصفرتك . وانت هدرت رطلاً من العرق ، وتقوست رجلاك حتى حصلت على قليل من السكر .هل تعرف عظام أبنائك البيض والزبدة والحليب..
وانت .. وانت .. أعرفكم جميعا .. أعرف معاناتكم العظيمة .. لكن هل وقف احدكم أمام خباز يصرخ في وجهه ، ويوجه اليه تهمة الغش وسرقة لقمة العيش والمتاجرة بها : هل مارس احدكم لذة علو الأصوات ضد السماسرة في كل مكان .

اوطانكم تسرق وانتم صامتون .. حياتكم تهدم يوما بعد يوم وانتم صامتون . فرحكم اغتيل من قبل العتاريين والملاكين الذين لا يشبعون وانتم صامتون .. هل وجهتم الادانة الى بعض من هؤلاء الذين يكتبون بطاقات تموينية لامعة باسم القانون ثم يقبضون الرشوة ، هل فكر احدكم في طريقة عقابهم وهم يبتزون ويسرقون عنكم بجشعهم كما أولادكم .. تصمون بـ (الخطيئة) فقط وتتابعون .
أهل السقوف الخشبية لم يكونوا يعرفون هذا عبر مدى التاريخ . من عندنا يبدأ التقويم .. مثل هذه الحافلات التي تركبونها يجب تكسيرها فوق رؤوس أصحابها ،

تنددون بأصواتكم العالية بالسائقين الذيـن لا يرعون ، تطالبون بحقوقكم وتجترؤا .. اجل هذا ما فعلته ودعوت اليه دائماً .. ومن هنا سر عمري الطويل وشبابي الدائم . كنت بين الناس ، عانيت مـا يعانون ؛ ورفعـت صوتـي بآلامهم . هل هذا يكفي ؟ . لم اترك العنت يأكل مني . جعلته ينال من صانعيه .. لاحقوني دائماً وقالوا بأنني مجنون . منذ زمان طويل وأنا من يضع في عيون الظلـة المخارز التي ثقبوا بها أيامه . مجنون من يسب فلانـاً او علاناً ! . مجنون من يشكو من تاجر قذر لا يخاف الله ، ولا يخاف الناس ، مادامت أمواله جسورا تطول وتطول . مجنون من يشجب الخطأ .. مجنون .. مجنون .. حتى الله تخلى عنا لأننا تخلينا عن أنفسنا .

كانت كلمات الرجل قوية متتابعة يضغط على حروفها بثقة وحرارة وألم . بدت أسنانه كاللؤلؤ وهو يفتح فمه.. عندما وصل الى عباراته الاخيرة كان يهتز بكليته ، يتقاوى على الاجهاش ، يصر على الا يظهر ضعيفاً أبداً ، على الرغم من جروح عمره العميقة :

ـ « مجنون » ! .. « مجنون ! » ..

دوّى صدى هـذه الكلمـة في رؤوس مستمعيه .. حدقات بعضهم تطل عليه بالهواجس والشك بـل قـل : الخوف . عبرت عن ذلك عجوز علقت بصوت يخشخش مثل أوراق يابسة تلعب بها ريح :

ـ الشيطان ، الرثـار .. استغفر الله العظيـم . استغفر الله العظيم . لماذا تبقي يا الهي أمثـال هـؤلاء العجائز .. يا للعنة ..

نظرت إليه العجوز بشزر ، تحرك الرجل بخفة يحمل لها صرتها الثانية وراقب الباب والسائق مهيئاً لها راحـة ضـبة مناسبة حتى تصل بسلام الى الأرض مخاطباالسائق بوضوح له دلالته :

ـ انتظر ! . انزل أمك ! .

ثم مبدلا صوته الى لهجة حانية ..

ـ على مهلك ! . الله يسامحك . الله معك .

يعود الرجل الى مكانه . التقى الشيخ ، المعمم وراءه

ينتظر وحتى يفسح له قبل أن يغلق الباب ، وعبارة «لاحول ولا قوة الا بالله » تتردد على لسانه بصوت خفيض ..
كانت هذه العبارة نفسها ، قد انطلقت من فمه بصدق وعفوية ، اثر انتهاء الرجل من حديثه السابق . آنئذ ، حار الناس وهم يعاينون الشفقة تكسو وجه الشيخ المعمم، في معرفة كنهها . هل هي شفقة الشيخ من نفسه وهو مجبر على المسايرة ؟ ام شفقة الشيخ على معاناة حياتهم التي تحتاج الى صوت عالٍ يتحمل معهم مسؤولية تبنيه ، أم شفقة الشيخ على الرجل ؟ هل هي شفقة بهذه المعاني جميعا؟ لا احد يدري الا رغبة الشيخ بالنزول الذي بادر الى مد يده الى رجلنا مودعاً ، مشعرا اياه أنه لا يحتاج الى المساعدة كما فعل مع العجوز ..

ـ أجل ! . صحيح أن لا حول ولا قوة الا بالله يا شيخي . لكن المجاهرة بالحق عبادة . والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ارفع صوتك يا شيخ، ولا تخش في الله لومة لائم . (يقول الرجل) .

السائق لم يعرف كيف تخلص من العجوز وما تحمل

كم غيظة الشديد من هذا الرجل الذي يجمع حوله الناس، ومستعد أن يفعل أي شيء غير متوقع . طريقة انزال العجوز بمساعدته ، أضاعت الوقت ، وبدت غير معتادة للجميع . قاطع التذاكر بدا أنه يهيء نفسه لشجار قادم لا محالة . وعندما رأى السائق يد الرجل تقبض على كف الشيخ وتعطل سير الحافلة لم يكتف بمواصلة الضغط على الزمور، بل راح يوجه كلاما أشبه بالشتيمة الى الرجل ، مما شجع قاطع التذاكر على التحرك باتجاه الباب ومخاطبة الاثنين معا :

ــ اذا أردتم الحديث ، فانزلا معا .

ثم يوجه كلامه الى الرجل :

ــ انزل وخلصنا يا .. . ما رأت عيني على شاكلتك..

أطويل بلك مقامك هنا !؟..

أفلت الرجل يده . لم يمنع الموقف من أن ينزل الشيخ المعم نزولا محترما . ارتفع صوت المحرك . يقول الرجل مودعا الشيخ مطلا عليه من الزجاج الخلفي العريض :

ـ مع السلامة ! . ولا تؤاخذنـا فنقول هذا المجنون اللعين ! . مع السلامة .

الرجل لا يريد أن يفطن لوجود قاطع التذاكر ، ولا الى ما تفوه به منذ برهة . قاطع التذاكر اعتبر ذلك ما يشبه الانتصار ؟ وأراد أن يحتفظ بنشوة ذلك ، فابتعد مبربرا . أما الرجل فعاد الى مقعده الخلفي الطويل الملاصق لمؤخرة الحافلة ، يقول شيئا يريد ان يخلص اليه ويؤكده :

ـ كلنا تقع عليه المسؤولية في التبشير بالمحبة ،والمعاملة الطيبة ، والاتحاد ضد اعداء الانسان ، دون الخوف على مكاسب زائلة تبدأ وتنتهي من عند حيلة غير كريمة ، الموت افضل منها مادامت غير شريفة وحرة .

الحافلة تواصل الحركة مثل دب . لم يكن الرجل وحده يتضغط ، بل لقد أصاب الركام الحافلة نفسها ، فأخرجت سعلة مستعصية تزمخر وهي تندفع وتتعثر ، تحاول أن تكون قادرة .

يبدو الرجل الآن في المقعد الخلفي ، مثل ربوة عتيقة لم تلتصق بالأرض بعد ، تساءلت : هل تعب ؟ . لم يشعر

بي . لم يبق حوله الا القليل . مازال لديه رغبــة ملحــة
حثيثة أن يسمع شيئاً مجدياً من الناس ، ولو كان واحــداً
احداً منهم ، حتى يهدأ باله . يثير في اعتقاد بأنه لايهدف
الى مكان معين . وقد لايكون ممــن يرغب في النزول
مطلقــاً .

لوهلة أصابه قلق عميق . ليــس مثل مرض متأصل ،
بل عارض . رأيته وهو يمســح الحافلة من أولها الى آخرها
بعينيه النافذتين ، كفارس قديم يطلب المصاولة ، ويتحدى
من يخالط أو يحاود على ما ترسخ في حقيقته الداخلية عن
واقع حياتنا ، وعن كيفية التصدي له .

واحد مهندم تبدو عليه آثار النعمة ، يجلس في المقعد
الأمامي ، أدار رأسه للحظات ، لم يخف فيها كراهيته للرجل .
اعتبر ذلك تحدياً . رمزاً قمياً في نظره يصر على وجوده .
يقف الرجل على قدمين ثابتتين مثيراً دهشة من تبقى في
الحافلة، بعد أن اعتقد السائق وقاطع التذاكر على الخصوص
بنهاية مسرحية بعد انفضاض الناس . الرجل مستعد للضرب
من يملك النعمة أسقط في يده . بيد أنه يعتقد بأنه محمي ،

ولن يصل حنون أو خرف هذا المأفون الى حد الايـذاء ..
يقول رجلنا وقد توقف عند رأسه :

ــ بالله عليك قل لي ! . ما شأنك . زمان الخوف منك ولّى الى غير رجعة . أتظن تمسك على حصان أدهم فـي قريتك الظالمة ترفق من يحف بك كدود الارض . أتصر على (البيكوية) حتى اليوم . أنسيت أنك تركب معي في هذه الحافلة . هذا حالك ، مهما تلمعت ، بلا ألقاب أو أحـلام مخادعة.أنا أراقبك منذ فترة.التفت اليّ مرات بطربوشك الاحمر لايجعلك طاووساً ، ووجهـك المتفـخ يغريني بضربك . كنت توزع الكلمات وترى الى مـن حواليك مـتهجناً ، لكانني بك تقول : انظروا الى هذا الشحاذ المجنون : أليـس هذا صحيحاً . أليس هذا مضحكا وحقيرا أيضا . لو كنت غنيا أو صاحب مقـام مشترى لتصـح الناس بي ، وامنّوا على ما أقول ، وقـد يعتبروني نبيـاً لأنني مجاهر ببيان الحق . هـذا الفقـير أمامك حـارب الفرنسـيين ، وخاض حروبا ضد الانجليز أينما حلّ . حاربت في فلسطين ، ورميت الحجارة والأقذار في وجه حـراس

حكومات التجويع . لم أكن يوماً غريباً عـن أحـد. كل أمر يعنيني مادام فيه ظالم ومظلوم . أترى ؟ . مـن هنـا سر جنوني . هل يعجبك . انني أسألك ؟ لماذا لا تحـر جواباً ؟ ..

صاحب النعمة يكاد يختنق ، قاطع التذاكر صـديـنهما .

بعض الركاب تحفظ متشفيا وهو يسمع ويـرى ، وقد أعجب الرجل ذلك ، واغتبط له . أما من تحفز للتدخـل فلكي ينـع مشكلة يقع فيها هذا الرجل الذي يغلي ثقة وصدقا ورغبة في أن يقول أشياء كثيرة يود الاخرون أن يسمعوا لها ، ويعكس انطباعاً بأنه حاضر للمساعدة عندما يتخلى الناس عنك . فهل يدعوه لجموح الغضب .صاحب النعـة يقف بوقوف الحافلة ، ويبصق ويعلن عبارة صريحة بصوت مرتجف في وجل الرجل :

– ليـس الحق عليك . الحق على هذا الوقت الـذي تغير فيه كل شيء ، وشهدنا أمثالك له لسـان يتكلم ويتبجح . مكانك في مستشفى المجانين فقط . الحق ليـس عليك .

يتدحرج صاحب النعمة بين تخمين قاطع التذاكر وترويح السائق عنه . الرجل يرد قائلاً :

ـ أعرف هذا الذي عندك لتقوله . رح ! . سترانا أفضل عندما يحين وقتنا .

الرجل غضب غضبة شديدة وزمهرت حدقتاه وغدا مخيفاً فعلاً . قاطع التذاكر والسائق لم يبوحا بما يعترج في صدريهما . تجاهلاه متسائلين بصمت وهما يهزان رأسيهما : متى يخلصنا هذا الرجل من غمه !

يصيح قاطع التذاكر :

ـ حمام ، حمام الدرب ! ..

يهدأ الرجل . يلتفت . يتحرك بسرعة الى آخر الحافلة . يمسك بأرغفة خبز حارة سقطت للفور على أرض الحافلة من قميص عامل ممزق كان يحضنها بحرص ويضغطها على صدره . غفا العامل قليلاً . أعادها اليه مبتسماً بعناية وعطف . يجلس بجانبه ويسألني بغتة :

ـ كم الساعة الآن يا استاذ ؟

اجيبه وانا فزع من انه يعي، لي شيئا . كنت مشدوها، ساهيا ، لكن عامرا بالتأمل والتوقد والتأهب :

ـ انها تقارب الخامسة ، الرابعة والنصف وخمس دقائق .

ـ حسنا ، لماذا تجيبني وانت ضاغط نفسك ، وانتبهت لي كمن اصابته لدغة . لا تخف . انت منا . أمثالك من نحتاج اليه اكثر انا اعي ذلك . يقول الرجل وقد استبطن داخلي ببصيرة نافذة ثم همس بينه وبين نفسه كمن يقرأ قصيدة حزينة :

ـ اللعنة ! . متى تشرق الشمس في أفقنا . كم اتوق الى ان أشهدها قبل أن ...

مر وقت قصير وهو مطرق . حدق في سقف الحافلة . انغمر في الجو خارج النافذة . يلتفت فجأة الي كمن لهفا يشغله شيء :

ـ كم الساعة ؟ . لقد سألتك من قبل ! . كم هي ؟ . (يقول الرجل) .

ـ الرابعة والنصف وسبع دقائق . (أجيب ببساطة دون استغراب) .

ـ في هذا الزمن يسقط واحد ميتاً من الركض الذي لا ينتهي وراء اللقمة الصعبة المستحيلة . يسقط دون أن يراه الناهبون . مات بعضنا حتماً . انه فقير . فالاغنياء لا يموتون في النهار ... الاغنياء لا يموتون في النهار ..

ينهض للنزول فجأة ، وعيناه تبرقان بدمع خفيف . دقّ على الباب الخلفي : أن قف . كانت فرصة ثمينة للسائق ليتخلص منه على مخالفته قانون السير . يقفز بخفة من الحافلة التي لم تسكن بعد . ودّعني بأسى وحنو معاً . كنا قد اقتربنا من آخر الخط ، لم يبق الا أمتار قليلة . السائق لعن شبحه الغائب من المرآة غير اسف عليه ، وقاطع التذاكر اقترب ملاصقا المقعد الخلفي يعاين وجهه في جنب لم يزل أثره عالقاً على وجهه على الرغم من كل مضايقاته . توقفت الحافلة بعد برهة . رجعت باتجاه وجهة الرجل حيث اسكن ، اشعر بقوة غريبة تبعث في كياني في طريقي الى المنزل . الريح باردة . والارض بليلة .

تحت وجهي هبّة ، الرؤية ضعيفة . اقتربت أكثـر مـن الجنازة التي لمحتها بسرعة منذ قليل . جنازة هزيلة يشيعها نفر قليل ، لا يعدمون حماسة التعاون في حملها . بعضهم بسراويل طويلة سوداء فضفاضة ، وبأغطية رأس رمادية ، وبعضهم يلبس أي شيء يستر جسده . في المقدمة أحدهـم يبكي ويشهق يمسك به اثنان من الجانبين،وآخرون يلاحقون الجنازة عن بعد . يمر بي الآن الصف الاول ، أرى الرجال الاربعة الذين يحملون الجنازة . رغبـت في المشاركة . واحد منهم خيل اليّ أني عرفته منذ زمـن سحيق وأنـا أطلب أن يخلي لي مكانه قليلاً ؛ تبادلنا نظـرات الـود والامتنان . انه رجل العاقلة . كان ينتقل متحمسـا وهـو يحمل النعش من جانب الى آخر ، ودموع ثقيلة .. نديـه كالمطر تملء عينيه الاسطورتين .

● ●

ذو العين الواحدة

كان يعمل في حانوت حقير : قرب مجتمع من الماء آسن، في ضاحية المدينة وعلى كثرة توبيخه للناس الملقين فيه الاقذار من أرجاء الحي الغريب في نظره . فإنه لطالما سكت مدحوراً على أمره ككلب ، وهؤلاء أبناء الذين ضلّوا ولعنوا ، لا يزالون يقذفون من أفواههم النتنة تلك العبارة المحفوظة : « ابعد من هنا وإلا قلعت لك الثانية ». كان يود أحياناً أن يجيبهم : « إني أرجو ذاك ، فالراحة طريق العميان في هذا الحي الوسخ ابن الأربعين حرامي » .

لكن ثمة سهماً كان يصيبه في قلبه ، فيحتقن دمه . وينفجر باكيا بغضب منفرداً في زاوية الحانوت الخلفية في الداخل ، زاوية نظيفة يرعى نضارتها ، وأناقتها ، مهيأة دائماً لأزماته ، بعيداً عن الأعين ... هذه الافكار وغيرها، لاتجد وقتاً ، احياناً ، تتسلل فيه الى دماغه ، وتحركه ؛ إلا حين ينتصب أمام معلمه السيد ازاء السندان ، راشحاً

بالعرق الغزير من صدره ، وذقنه ، وأنفه .. وهو يزجره الا يكف عن دوران يد الكير ، لاعناً اليوم الذي لمح فيه عين المصائب .

ــ .. طرق .. طرق .. طرق ..

لوى الصانع رقبته بعيداً عن زحم النار . مسح بكمه المتفحم طرف عينه راغ في مكانه ومعلمه يقف مدهوشاً من حركاته .. أزّت النار وتلألأت في وجهه كالآلاف المصابيح كف يده قليلاً ، وسارع الى قضبان الحديد الطويلة ، ووضعها أمام معلمه .. قضبان الحديد تتحول الى أشكال مختلفة تحت ضربات المطرقة الثقيلة .. بعض الأشكال تذكره بـن أنس جم في عالمه المعذب ، وبعضها الآخر يجعله يعيش في محنة قاسية تأخذ بكيانه كله وهو يشهد متلذذاً ، متشفياً ، عذاب هؤلاء الذين أبعدوه عن آفاق الناس ..

ــ طرق .. طرق .. طرق ..

هذا الشكل الأحدب يشبه أبا عبده الحجار الذي

يفتت الحجارة قرب مشروعات مساكن الجمعيات التعاونية دون كلل . ودّ لو يضمه الى صدره المتقبض الهزيل مبعدا إياه عن نزلات المطرقة الهاوية التي تدهمه ، وتمججه ، تمدده ، وتكوره .. لو يصنع شكل أبي عبده بنار قلبه، ويحفظه الى الأبد في صندوق «العدة» المختص به في زاويته المظلمة ، حيث يحلم الآن براحة فيها ووسعة وسكينة.. وفي قلبه آلاف الهواجس ، وفي عينيه عشرات الأشكال .. كم أنت عظيم ، ومحبوب يا أبا عبده !. تذكر كلماته الحكية الجهورية الصاحية حلم الحصى : « انظرا يا ذا العينين !. ليس لك الآن إلا أن تسلك طريق القوة،والصحة، والسعادة . وتضرب الدنيا هكذا ـ ويهوي بكل قوته على حصاة صلدة رصاصية ضخمة ـ وعندئذ تتح لك ما ترغب به » . أجل ، هذا حق !..

ـ طرق .. طرق .. طرق ..

جبينه ضاق ، اسودّ . نبطت أحاسيسه كالأفاعي .. ثم ابتسم في بطء ماكر . لمح معلمه بطرف مائل ، وهو

يحاول إخفاءه مشاعره . هل يدرك معلمه مايرغو في ذهنه؟!
ابتسم في خبث . إنه يضربها ! في بداية الامر كاد يسمع
كركرتها إذ معلمه يعالج القضيب المجمر في تأن ، فيتقلب
بين يديه المدربتين على غنج .. أم عماد صاحبة المحل
المتأجر منها تتظهر حقيقة على السندان .. رأسها منتفخ
كالبالون بلا خطوط واضحة . جثتها تتكوم أمامه مثل
حجر غير مسنن . مفلطح وعال .. لكأن قائمتيها (المتخنتين)
القصيرتين ، ترنوان الى ليط بطنه .. هي تئن ، وعظام
السندان القاسية تحتها أيضا .. أسقط مطرقتك المحكمة
جيداً يامعلمي ! . سددها على رأسها ! . هنا على بطنها
ذي الطبقات ، تحتُ على رؤوس أصابعها المدببة .. اضرب
يا معلمي ؟ اضرب !»

— طرق . طرق ..

في مرات عديدة ، كانت تزور المحل ، وما أن تبرز
ضاجة حتى يصدر سلامها بانحناءة لتهوي يديها الجبارتين
على قفاه : « اذهب كلما رأيتني يا ذا العين هنا ، فلا أطيق

عينك رائعة الجمال » . كان يود أن يسألها الى أين ؟. لكن جفاف حلقه في تلك اللحظة ، وقرب أظافرها المفترسه من وجهه ، كانا يمنعانه من الاعتراض .. فيرخي رأسه بعد أن ينعره معلمه بنظرة لاحبة متلمساً الطريق مبتعداً شيئاً فشيئاً عن الضحكات التي حولت المكان الى رعود .. تمنى مرات لو يعود أدراجه .. لو يضعهما في حرج مما يفعلانه . لكن .. ماذا لو طرد ؟.. ماذا لو قلعت له الثانية فعلاً!.. ضبطها على حين غرة ، وهي تدنس زاويته المظلمة ، ويومها آه : اضرب يا معلمي ، اضرب !..

ـ طرق .. طرق .. طرق ..

وحرج حسن نظرة الى معلمه . تعثرت عند زاوية فمه الساخرة .. العرق في جبينهما ينبوع سلسال .. والنار مرآة سحرية أمام ناظريه ..

« روحية » الصبية الراعية ذات العينين الذابلتين اللتين تحكيان أيامه السود .. ترفع رأسها ، اللحظة ، في

دلّ .. والجسد الهزيل المتمرد يعيده الى الشجرة عند نهاية الحي حيث كان لقاؤهما الأول .

... أقبل اليها يجذبه هواهـا يسمر الارض بقدميه مائل الرأس .. وقف قريبا منها في بداية الأمر ، ثم قال في خجل :

ـ مرحبا !.

لم تعره روحية اهتماماً ، تابعت نكش التراب بعصاها، ثم راقبت الخراف المنتشرة الوادعة ، ومدّدت النظر الى الحملان تعبث بقوائم النعاج ، كمحاولة اضاعة . في آخر الأمر ، لم تستطع أن تتجاهله بعد أن صار فوق رأسها تماما يحادثها :

انا أعمل عند الحداد . كل يوم أراك في الغدو والرواح الدكان منزلي أيضاً . نحن جيران ..

بصّصت روحية بعينين كحلاوين واسعتين ، وبجبين طفولي ضيق ، وفم مثل الخاتم انفتح بحساب على العبارة التالية :

وماذا يعني هذا ؟

ابتسم حسن ابتسامة صفراء . تلعثم . وحاول ان يطمئنها ، ويبدو وديعا أمامها : لكن عدم ثقته بنفسه كان يعطل دائما كل شيء :

لا شيء ! .. لا شيء .. أتسمحين لي ان الاعب هذا الحمل الجميل !..

(يقول حسن)

لا بأس !.. أمسك به ان استطعت ..

(ترد روحية باقتضاب ، وتنشغل للفور برد الشارد من الأغنام الى القطيع ..) .

اما هو فقد لصقت عينه بها .. لاحظ بروز مؤخرتها على الرغم من نحولها .. أعجبته قامتها الفارعة .. ، شعرها الداكن المجدول جديلتين اثنتين .. تترافصان على ظهرها ، وهي تركض فتغريه بمشاركتها في المطاردة . كم هي لذيذة!

كان قد قبض على الحمل .. راح يتأمله ، ويده على صوفه القصير ، ينظر وجهه وحركات عينيه . الحمل يثغو يود" الإفلات يهفو الى أمه . دس أصابعه في فمه عابثاً ، ثم وضع ذراعيه تحت بطن الحمل ورفعه عالياً الى فوق تاركاً قوائمه معلقة . بيد أن الحمل كان سريع الإفلات. خجل حسن من نفسه حين هزمه هذا المخلوق الضعيف سعى وراءه . راح يتخطى رؤوس الأغنام ، فلم يجد نفسه إلا مقلوباً على ظهره ، يئن من السقطة وهو يحاول الوقوف.. آلامه كلها ، وعذابات ساعات عمره تبخرت جميعاً اذ تناهت الى أذنيه قهقهات روحية وهي تشهده من بعيد ضاحكة منه .. رأى نفسه يضحك أيضاً .. نسي للحظات انه وحيد منذ أن فتح عينيه بل قل عينه الواحدة على الحياة. لقد ترسخ في أعماقه ، لوهلة أن هذه الضحكة ـ الحادثة خلقت ألفة حقيقية بينهما ، وأن روحية تشعر بما يشعر به.. إنه لا ينسى ابداً ، كيف بقي يمرح ، يشد انتباه روحية . ويستحلب ضحكها عليه بحركات اضافية ، وهو يبتعد عنها مودعاً بإشارات لطيفة فرحة . هل يخيل اليه انها تحبه ؟.. ولكن لأجل ماذا ؟.. أحياناً كانت تنطلق الضحكة

الصاخبة ذاتها عند مرور أغنامها بجانب الحانوت . وهو مشمّر عن ساعديه ليضع الحديد في برميل خاص ، وقد التوى رأسه بصورة تمكنه من العمل بوجه ذي عين. كان يتمنى لو يحدثها مرة أخرى . كثيراً ما غسل رقبته السوداء بالصابون المطيب . لبس ثياب « الجمعة » ، ولحق بها خطوات وهي راجعة عند الغروب ، وقد تدلت على الزاوية اليسرى تماماً : عند العين اللعينة جزازة من الشعر الكثيف تحجبها عن الأنظار .. لكن أحداً من الناس لم يلتفت إليه ، وان التفت فسخرية من لباسه وتكوينه، فكيف الحال معها إذن !؟..

كم أحبك يا هذه النار ...

طرق .. طرق ..

ازفري يا ناري .. وحولي الذي لا يتحول !..

لمعت نظراته في قلب النار تماماً . توهجت في لهفة الرضيع . يُرْهف السمع . روحيه تناديه : أن أقبل .. تمد يديها اليه والابتسامة تملأ خديها . تعال ياحسن، لا تخجل ! ..

راسه بدا يتخلع من بين كتفيه .. والنار فوهة بركان

ذات وجه انثوي حقيقي . أقبل ! .

نعق معلمه ، وعيناه عنكبوتان تستيقظان في وجهه :

هه ! . ماذا تفعل . آه لو القيتك حقيقة في هذه النار ،

وارحتني منك !.. ثبت يدك .. ثبت رأسك !. طرق .

طرق . قبل كل شيء هذا لا يرضي عينك السامية . ماذا

في النار أيضا حتى تمدد رأسك هكذا .. طرق .. طرق ..

وفكر حسن : سالقي بنفسي وارتاح .

كانت النار في الوجاق موسيقى بدائية حزينة . يغيب

في صدرها نفس ملتهب متأوه .. يعلو أحياناً كصدى نباح

الكلاب الشرسة في الحي . ويهبط متضائلا في حدة ، كمواء

قط ضعيف جائع .وهو ،بين هذا أو ذاك ، يخيل إليه أنه يسمع

أصواتاً عديدة كولولات الحبالى ، تختلط في ذهنه . وتمرّغ

أحاسيسه . انه يحس دائماً بهذا الحيوان الأعمى . الذي

يخبط في أحشائه . وصدره . ودماغه في حنق ، كلما اقترب

من النار وأندلعت سحالي الألسنة الزرقاء مهومة ،تتحدى عينيه ، وشيئاً من إيمانه بحياته الكاسدة . شيء فظيع جداً الا يجد من يحبه .. الا يحب أحد احداً من الناس !!.
أين تمضي ؟.. ومن أي سبيل يمكنك أن تهب واقفاً لتبدأ من جديد .. حين يحاصره معلمه بالقضبان الحديدية تلك التي تنتظر العمل والخلق ، يود أن يهوي بها على قمة رأسه معاقباً ، كان يهرب من باب المحل كالظبي . كيف البال بلا حس حتى لو طعن بسكين . تنقله رجلاه الى العراء المباشر لحسّيه ، وثمة رغبة جامحة تبرجس قدميه ، ثم ترسلهما ، ليركض كالريح بعيداً بعيداً في خط مستقيم يخترق العراء ، والبساتين الكثيفة ، والجبال حتى يجد .. يجد ماذا ؟...

انت يا ذا العين الواحدة !. الا تسمع .. هات المطرقة الكبرى ! رفت عينه الواحدة تلك ساخطة ..

طرق . طرق ..

كلما سمع هذه الكلمة ينطفىء شيء عظيم في داخله بحجم الوجود ، كمصباح كهربائي وحيد في غرفة واحدة .

يردف معلمـه :

ماذا في الأمر !. لا تفهم !.

وضع المطرقة الكبرى أمام معلمه ، وأسقط عينه كالحرقة عليه . زفر المعلم متضايقاً ، في الوقت ذاته ، أخذ شعور متنام من الكره تجاه معلمه لم يعتد عليه .

طرق . طرق . أترى هذا المستنقع الذي لاترغبـه عينك الواحدة أمام المحل ، لقد كان جدولاً فراتاً يؤمه كل أبناء الحي صباح كل جمعة .

لقد كان !. (يقول حسـن)

وكانت بقربه شجرة كبيرة ، شجرة جوز تشبه أم عـاد في جمالها ، واكتظ ظلها ، وروعتها . ذات ساق لا حـد لكساله ، وتكويره . وأغصان تخبىء في أعابهـا أجمل الطيور واكبرها . كانت هنا يا أحمق .

أعرفت !. طرق . في هذا المكان .. واشار الى بالوعة الحانوت .

فكر حسن بمعلمه ذاك الذي لا يطيب له العيش إلا قرب مستقعه ، وتحت ظل شجرة موهومة . خلقه الله يحب النظافة ، والأناقة ، والجمال ، وحظه أن يعمل حداداً في حيّ مريد . ثغاء ماشية بدأ يزحم زقاق الحانوت . يثير غباراً ولغطاً ضوءه لهيب النار الخافق واختلط مع الدخان المتصاعد .. هذا الحي الغريب البعيد !.. تذكر جنباته . وأقذاره ، أصواته الغريبة في قلب الرياح الناشجة عبر الليالي . تذكر النحاس . والمُبَيِّض . ، والبقال .. تلعبت بمنخريه رائحة الدجاج والأغنام ، والنساء أيضاً .. تداخلت رائحة الغبار أكثر فأكثر وامتزجت مع دخان المكان . معلمه يصفر بلا كلل أو رويّة ، والنار عاكفة على سريرها موجعة ببعث ألوان عجيبة أمام عينيه ، ويده تعبث بالكير في آلية . شعر بضيق ، وجع ، في أحشائه ، وهمَّ أن يلقي برأسه في النار ويلحق بوالده الشيخ .. أن يقضي على العين الأخرى . ارتجفت نظراته ، وكادت تكبو مع رأسه .. بعبع معلمه صائحاً :

انتبه . اللهم اجعل هذا اليوم على خير !. كدت تقتل نفسك .

ثبت يدك . قلت : ثبت راسك . هل ضايقك هذا الغبار وانا أنظر داخله بعيني اثنتين !. يا للرائحة الطيبة المنعشة !.. نروح منها نروّح .

(يشير المعلم ضاحكا في سخرية الى باب المحل ويدمدم بأغنية رذيلة) خيط أسود ترنح في عينيه .. لم يشعر بحاجة الى عينه الأخرى كما يرغب الآن . هاهي ذي روحية الحبيبة تبض عيناها السوداوان العاليتان في أقماسه .. تقبل نحوها وراء القطيع بثوبها الأسود النظيف في رشاقة تهبط عليه من خلال الغبار الكثيف كشبح مختلس .

يحاول الصانع حسن أن يتكلم :

آ .. آ ..

يدركه المعلم على عجل . انه يعرف أن شيئا غامضا يربط بين روحية وصانعه ، وأنها تداوم على بيعه الحليب في بعض الأصبحة من اجل هذا الشيء . لذلك فإن سعيه لتمهيد الحوار بينهما مرتبط بهذه المعرفة ، ما دامت الفائدة تعود اليه في نهاية الأمر .

ـ تناول منها سطل الحليب يا أعمى ، واشكرها ـ ، يقول المعلم ـ اعذريه ، انه لا يفهم ، انظري كيف يفتح فمه بلا شيء كفراغ عينه القائمة تلك ، يا للبلادة ! ـ يهز المعلم رأسه ـ امسكه من يدها الجميلة ، هاته عنك ...

عينه الواحدة هجمت أمام روحية بلا حراك ، واعتلج في صدره شعور بالألم ، يشعر ان الاقتراب منها خطوة ، يشبه من يعبر الى مجاز مستحيل ، يحاول أن يتكلم بشيء ، أن يحدثها عن لهيف قلبه لا أمل ، تهكة اعياء ثقيلة داهمته ، وصمت مفاجيء فرغر في اعصابه ، وانسرقت قواه ..

تناول المعلم سطل الحليب شاكراً ، وغابت روحية في الدخان والغبار .. وعلى شفتيها ابتسامة صفراء ماحلة ، دائما يشتمه معلمه أمامها .. دائماً يعمل على أن يحط قدره حتى يجعله ذروة من هواء ...

الاسى يتفجر دروباً حمراء عبر النار ..

نوافير مصورة بالزبد الدامي ، تمتد من قلبه الى دماغه

تترك أثرها على فمه المطبق ، حتى كأنه لا يتنفس ..

. الكره المتعاظم لمعلمه سيل يجتاح سدود مسامه ، وعقله ، هذا الكره ينشف دمه .

يتعلب صوت معلمه في برود :

إيه يا ذا العين !. لقد بدأت عينك هذه تجلب الشفقة .

هذا شيء مفيد .. لكنها هي تشفق عليك فقط ، ولا تظن انك ستنساها بتلك العين ابداً ...

يرفع الصانع حسن لمعلمه تلك العين في يوسة .. كان ذكرها مرة واحدة في اليوم يكفي لتعذيبه .. لماذا لا تسألها يا ثور !.

يحس معلمه بثورة عاتية في محجرها .. تقلصات وجهه غدت مخيفة .. كان المعلم يراه من خلال الدخان ، كائنا غريباً ، شيئاً ما لا يختلف عن الدخان . يرمق عضلة في خده أخذت ترتجف وتنتفخ . ان شفتيه المفتوحتين أبداً ، تحولتا الى غلاف رقيق مضموم يتمدد . لأول مرة يشعر بالرهبة

والخوف من صانعه .. يحول عينيه الآن . يتساءل في سره :
كيف لم يفكر أبداً بامتلاك صانعه مثل تلك السيطرة ...

تلف عينا المعلم في ارجاء المكان المتهدم الأسود
الجدران ، بعيداً عن وجه الصانع . تثبتان على المطرقة التي
تدق قضيب الحديد المحمى ، تذكر كل زاوية منه ..
سقفه المتخرم الهلامي : الذي تتدلى منه سحب من الهباب
الأشكال المرعبة السوداء المتشكلة على الجدران المكلسة
من قديم .. هذا ثعبان لئيم يمدّ لسانه ينذر بالانقضاض .
وهذه وجوه غريبة تنبع من زاوية جدار المحلّ في الصدر
تركض مسرعة على سلسلة هضاب سامقة ووطيئة ..
يسمع صراخها اليوم في أذنيه كأنه تحت وطأة كابوس .
صورة عقرب شنيع في الجدار المقابل يزحف راتعاً في القاع .
على الجدار الآخر قريباً من باب المحل . رسم باصبعه
صورة مشوهة لصانع مشوه . صورة وجه لايحمل الاعينا
واحدة مطرودة : تسلملت من مكانها بخطوط اضافية اوسع
حتى كادت تملأ الوجه كله . كل شيء في مكانه . هذه
الأدوات هنا ، تلك هناك .. لم يتغير شيء اللحظة إلا

انفاسه . وهذا الآدمي امامه : يكتشف فجأة انه يحبه جداً،
ويحب عينه أيضاً . ولم يكن موجوداً في أي وقت في نفسه،
كما يتجلى الآن يَحْسَبُ له حساباً يتضح على محياه ويهز
اعصابه تسقط المطرقة من يد المعلم على الأرض . صوتها
احدث وخزاً عنيفاً في كيانه كله .. تمنى أن صانعهلم يلحظ
اضطرابه وغيابه . وفكر : لقد فوت عليه بما فيه الكفاية..
ساحاول ان اعوضه .. لكن كيف استطيع ان أصنع منه
رجلاً ..

الصانع حسن قرب النار سهم مسدد . يصرخ المعلم
على ضعف هذه المرة :

مالك اليوم يا ابني تبدو هكذا ! ثبت يدك جيداً
بالملقط . وتابع بالقضيب حركة المطرقة ..

يقول المعلم ذلك موجهاً . يحرك النار قليلاً ، ثم ينحني
لالتقاط المطرقة من بين قدميه . تبتسم ورود دامية ساخنة،
حينئذ ، على شفتي الصانع الجافتين . ينتشي بلا تلكؤ

رجوله في جنون . يقبض على طرف القضيب الحديدي البارد ، وينصب به في قوة ألف ذراع ، على رأس المعلم آه ! .

كانت آهة ساخطة ، مجهدة ، مسطولة ، فتشت خلف السندان . ودم مظلم حار ودسم أخذ يسرح في شعر المعلم المشعث .. تخلخل رأسه قليلاً قليلاً ، ثم يتكوم على أنفه على الحديد المتكوم ..

العين الواحدة مشكولة الجفن ، والاخرى تكاد تكون مفتوحة . والنار في الوجاق تهبط رويداً رويداً ، تتكشف الجمرات البيض ، رمادية أول الامر ، ثم خضراء بلا نطاق.

تثاقل رجلا الصانع . ويد الكير تئوب الى رشدها في بطء . يحمل رجليه بعد أن تمطلتا الى الداخل . يثني قضيب الحديد الى قسمين ، ثم يضعه في صندوق العدة مع الاشكال الاخرى . يداوم بصره في تلك الاشكال قليلاً ، ثم يغلق غطاءه الخشبي ويجلس عليه يلتقط أنفاسه . يدفن رأسه بين يديه . سوف يكتشفون عما قريب أمر القتيل ، ذلك الثور الغليظ . سينظر الناس إليّ مذعورين ، حينما

سيقبض علي والحديد يحجز يدي .. سألتذ في رؤية رعب الناس المحتشدين على الباب ، يشيرون إلي في حذر ، وأنا أمر ، يتهم ، رافع الرأس ، واضح الجبين . وقد نبتت لي ، إذ ألمح روحية بين الجموع ، في الزاوية اليسرى تماماً ، عين أخرى .

● ●

ايقاعات القطار الساكن

الشرفة في البناء الجديد مسكونة بالفرح . معبأة بالاجساد والعطور وصياح الاطفال والعيون المتأملة الافضى عائمة على روائح القهوة العربية في العيد ، وهي تعانق أمامها ما تبقى من أرض سكة حديد حمص بعد ان التهم بعضها العمران .

رأيت أخي لا يشعر بما حوله في الشرفة . ما يراه في المحطة يمتلك عليه قلبه .. لم أرغب وسط هذا أن لحتضن الالم بدأ يتقد في داخلي .. المحه يشوشب في عيني أخي غلالة خضراء رمادية وهو يتابع الخطوط الحديدية الى مداها عبر الافق .

دروب المحطة كساها الحشيش والنبات الشوكي وبقع من الزيت ، منذ زمن لم تضربها أقدام المسافرين الصاعدين أو النازلين . الخطوط الحديدية تركض لا تلوي على شيء

يميناً أو يساراً .. تحرك أعماقنا نحو شيء : لا نستطيع الهرب منه وهو يلتسع في كل ما تقع عليه أعيننا .

ممتلئاً بإيقاعه غدوت ..

يهز أخي قبالتي شجرة الذكريات كأنه عرف ما تخبىء العينان ، عندما انسل صوته بين الصخب واللغو مختنقاً بأجنحة مهيضة قائلاً :

ـ أتعرف يا أخي ! ؟ .. نفتقد تلك الايام ! .

فكرت : « وهل يستطيع الانسان إلا أن يكون فاقداً او مفقوداً .. ولكن .. » .

أحاول أن أعلّق بكلمة ما . جفت الحروف بجفاف ريقي .

ينقذني صوت أخي وهو يضيف :

ـ أتصدق يا وليد ! ؟ . مشهد هذه القطارات ؛ أكثر إثارة من غابات الفرنلق ، وأجمل عندي من غوطة دمشق ... « اعترافٌ وددت لو أخبرتك به قبْلُ . لكل منا أشجاره . » .

أجاهد أن ارفع صوتي مؤكداً على فقدان ابائنا القارطة :

— كلما مررت بهذه المحطة ، تلبثت خلف أسلاكها الشائكة ، الاحق بلهفة ما تبقى فيها من حركة : واتحسس نبضها . في صغري رسمت هذه القطارات على الورق باستمرار . كنت أحلم بالسفر بها . وكان ابوك يبتسم قائلاً : « لماذا لا ترسمني ! ؟ .. أين السائق يا وليد ! ؟ » .

تبدو القطارات ، اللحظة ، أمام ناظرينا حيوانات هائلة تركن الى الهدوء والسكينة والراحة .. قطعانا مشتتة متباعدة هنا وهناك . القاطرات منكفئة الى الذكرى .. جلدها الاسود متشقق تكدس عليه الغبار والرماد المتوهج تحت أشعة الشمس . مناخيرها مسدودة بالشحم والزيت ورذاذ الفحم والتراب .

يهفو القلب الى الحديد الذي أحب . تضج طقطقته في داخلي ، ها هي ذي الابواب مغلقة على هنات ومباهج

لم يبق أثرها . الاشجار جانب السور المتهدم محبونة بالسفر تزفر روائح الاخشاب والفحم الحجري وتعزف باوراقها أصوات الذين مضوا ...

تكبر الاشياء وهي تبتعد ، وتفيض فيك الدهشة حين تدرك أن الاجزاء الصغيرة المتفككة المتناثرة في كيانك ، تشكل عالماً كاملاً ، تنتسب اليه كلما أمعنت هاربا منه أو نسيته عبر تكاليف الحياة وتعاقب الليالي .

ما من شيء ينتهي أبداً . الذي مضى نلفه باعماقنا ، وتتابع ... دائما نبدو ...

يقول أخي :

— لم يبق في المحطة إلا قطار بضائع متواضع . يأتي الى الاحياء المجاورة صوته بين حين وآخر . حديث دائر منذ زمن عن الغائها .

لم يكمل أخي كلامه حتى تناهت الى أسماعنا صفارات قطار قادم .. اخترقت آذاننا بقوة عندما مرق قدامنا . تنبه كل من في الشرفة .. الاشجار تنتفض . وأخي يسألني :

— هل تذكر اباك جيداً ؟ كنت صغيراً . قد تذكر بعض أعماله وحركاته .

أجيبه قائلاً :

— أذكر قسماته بدقة . ويخطر في بالي ، اللحظة ، أشياء كثيرة ما يربطنا به في هذه المحطة .

يضيف أخي متأثراً :

— أتعرف يا وليد ؟ أبوك شقي من أجلنا كثيراً ، طبق الطعام من القش كان يكبر يوما بعد يوم وهو يكافح . الابتسامة لم تكن لتفارق شفتيه ، لكنها تتألق في سحر عندما يصعد القاطرة . القوة وحدها كنت تجدها في عينيه الواسعتين،كنا نتعلق بثيابه عندعودته،ونطالبه بالهدايا .. وفي المساء يجلس ويحكي لنا قصة السفر . ليس لديه الكثير من المال ليقدمه لنا ، أجره بائس مثل كل العمال أيام الانتداب الفرنسي ، لكن كنا نملك معه الاحلام .

شيء مؤسف الا نكون معه في تلك الايام كباراً

قادرين .. أو لا يكـون معنا الان .. تغيرت أشـياء كثيرة .. ولكن ..

أنعم النظر في وجه أخي ، أكاد أرفع صوتي وأنا أحادث نفسي بحرارة :

« لكنه الان معنا . أجده أيضا في المستقبل . كنا معه ، نحن فيه وهو فينا .. احتل آلامنا ، ونبقى نحمل آلامه .. وقد نعطيه الفرح بشيء . حين يبدأ الانسان هنا أو هناك ، لن ينتهي . لم يمض أحد أبدا في مكان . بل يحدث كل يوم في العالم . بداية أيّ منا ونهايته توأمان ».

في سواد عيني أخي يلمع احساس متوهج . لكأن شيئا مدمرا ومضيئا معا يتأهب فيهما كالبراكين . لكأنهما عيني رسام مثقل الاعماق ، متوتر النفس ، يوالي تشكيل لوحة دون أن يحسب للمعاناة حسابا .

أخي يتابع :

ــ مرت بنا أيام شتاء قاسية في الماضي . كانت الثلوج تتراكم في حمص أحيانا الى السطوح . وكان على أبيك أن يواجه الخطر والمصاعب من أجل اللقمة . يستيقظ

وينهض في عزيمة فيما نستمتع بدفء الفراش . تجلس أمك جانبه وهو يشرب الشاي الاسود بصوت مسموع ، تحذره ، تدعو له ، وتشيعه الى الباب . كان صوت حذائه الثقيل يمتزج مع صوت المطر الساقط بشدة . منذ أن يفارقنا كانت تبتدىء في أسماعنا صفارات القطار الهادر . نراه على البعد يغذ خطاه الواسعة نحو القطارات التي تنتظره . يطمح في أن يقبض بسرعة على لسفة قيادتها والطواف بها . يخرج رأسه من نافذة القاطرة الصاهلة وهي تعدو ، فيغسل رأسه بريح المراعي ، ثم ينصت الى ايقاع الموقد كم لعبت في هذه المقطورات ! كم صحبتك معي الى المحطة ، وجرينا خلف قطار المسافرين ، نسابق السكة ، وظهور لوجه أبيك المطل بعد أن طال انتظارنا له . عندما يتوقف القطار عن الحركة ، يغسنا ابوك بعينيه وقلبه أولا ، ثم يمدّ يداً الى الصغير الراكض المتعثر ينشله الى الصدر ، ويغرقنا بالقبل . كانت المقطورات تودع المسافرين فرحين متضامين يحملون أمتعتهم ويضحكون ، تعبق معهم من الداخل روائح الدفء والاوقات الجميلة .. ثم تندفع الى اللعب في الداخل ، نجلس في المقاعد الفارغة ، وتسلق

الرفوف ثم تنطلق في نشاط وزهو الى القاطرة التي لم يهدأ نبض قلبها عن الخفقان بعد ...

ابنتي : « شذا » تلألأ التلهف والبراءة في محجريها ، ثم يعبق صوتها بحدة بيننا قائلة :

— متى نسافر يا أبي بالقطار ؟ ألم تعدني دائما ؟ ! .

يبتسم أخي لها ابتسامة تواثب فيها قلبه ، ثم أجابها بكلمات تطمئنها .

يتنفس أخي بعمق ويقول :

ما أزال أذكر عمله في القطار قبل موعد السفر . كان يحبه الجميع ، يتبادل معهم السلام الحار ، والنكات . أما : « عمال الخط » فكانوا يمرون بنا أحيانا على عربة خاصة تدفع بالايدي يصيحون مهللين ثم يغيبون بعيدا . اترك اباك أحيانا الى قطار ساكن ، ثم أعود اليه ، يقترب مني وخرقة يمسح بها يديه سائلا :

— هل نمت جيدا ؟ هل لعبت في القطار ؟ أما خفت شيئا ؟ .

وعندما يطمئن الى الاجابة ، يبادرني قائلا :

ـ جاء وقت الروحة . هيا ! .

يقبض على يدي بحرص . تقطع سكة بعد اخرى . في حين قلبي متعلق بكل من يعمل في المحطة ، وبالقطارات الساحرة ، وبوعد السفر فيها .

يزهر مشهد القطارات الساكنة أمامنا بالحب . خلال الصمت كنا نسترق السمع الى استرجاعات غناء . العجلات تكاد تتحرك . عيون أخي تحث الخطو في درب الاشواق، أما ابنتي : « شذا » فكانت تراقبنا في نشوة ، وتحاول أن تفهم شيئا مما تسمع .

تخطر في بالي مراحل العمر البعيدة والقريبة . أخاطب أخي قائلا :

ـ من كان يظن أنك ستسكن هنا على بعد رمية حجر من المحطة . كنا نعيش بعيدا في الشرق . كثيرا ما حلمت بذلك .

يقول أخي :

ــ ستكون لك فرصة . في كل صباح أصحو على هذا المشهد ، أرى الضوء يغمر شيء ثم اخترق المحطة في طريقي الى العمل . أعبيء ايقاعة القطارات ورائحة الشحوم والدخان والزيوت المتكلسة في جيوبي وصدري ومختزنات جوانحي .. أوزعها على الصغار لدى عودتي .. خذوا: هذا من رائحة جدكم ! .

أقول متحسرا :

ــ العمر يولي يا أخي . رقعة العمر ضاقت . كانت رحلتنا صعبة منذ موت أبيك كلما كبرنا غدت صورة الطفولة أوضح .. اكثر المآ .. أو أكثر بهجة ..

يميل الى الامام ويشير بذراعه يرسم نصف دائرة متسعة بدأت وانتهت بالشرفة وهو يضيف :

ــ كان أبوك ينقل الينا كل ما يجري على هذه الارض أمامك . إن بعض هذه الخطوط الحديدية تمتد باتجاه جراحاتنا الداميات .

لقد قتلته هذه الخطوط ، كان شهيدها وهو مشدود اليهـا ..

الطلقات شمعته وتركتنا في العتمة لايام عصيبة ..

سيرة الموت قطعت كل حديث . جفت الرغبة لدى كل منا في الكلام . الموت فاصل تنتهي به الحياة ، وقد كان حديثنا عن الحياة ، فلم يبق لدينا شيء لنقوله عنه .

انتبهت الى أنني قد نسيت الماضي في شوارع مدينة مزدحمة أثناء الدراسة بعيدا عن حمص .. في أركان لا تعرف الاستقرار .. استمر هذا النسيان مدة .. كنت أكره الماضي والحاضر وأتعلق بالمستقبل.. وحدها صفارات القطار في كل مكان أنزل فيه ، كانت تعيد إليّ الثقة بأنني أتذكر أبي .. كانت أعماقي ترفض باصرار التفكير في نهايته الفجيعة ، او في حقيقة موته .. خيل إليّ عند عودتي الى مدينتي ، انه ما يزال يعمل في المحطة ، لا بد أن أجده في مكان ما فيها ، بل لقد خيل إليّ أكثر من مرة أني رأيته فعلا كلما مررت مصادفة بالمحطة .. او كنت أسير في الطرقات . كنت صغيرا عند موته . لم أشبع منه . اعتقدت

دائما ان غيبه مؤقتة او أن املأ ما سوف يملأ فــراغ مكانـــه .

اعود الى أخي . كان مطرق الرأس .. كيف نبدو اذا تذكرنا ! .. أرشف ثمالة قهوتي .. امضغ أدخنة لفافتي ممتزجة بعطور النسوة . ينبثق في نفسي إحساس طافح بالحياة .. تنتهي الحياة في مكان ما .. في الوقت الذي تبدأ في مكان آخر .. صراخ الاولاد وضجيج المحتشدين في الشرفة أعاد إليّ الثقة بالحياة . إن ممارسة حياتنا كفاح حقيقي ضد الموت . شيء ينطفىء في داخلي حين لا أعود امشي ، اعمل ، أحمل أتعاب المساء ، أتلهف الى رؤيــة الاطفال والكتاب والشمس والازهار والماء .. استشعر الحياة المتواصلة بسواعد العمال الخشنة والافكار النيرة .

احتجت الطفلة : « شـــذا » على الصمت مناشدة : الا تأخذني معك الى المحطة يا أبي ! ! ..

كان الحاح ابنتي قويا ، حارا .. يمثل رغبتي .

هل نحتاج الى أن يأخذنا أحد معه الى مكان ؟ ! ..

هـــل نرغب في أن نكون مع أحـــد في لحظة ما في

مكان ؟ ! .. حتى لنبدو مستعدين دون رأفة ، لان ندفع ثمن ذلك حياتنا .. لسوف ننتظر دائما أن يأتي الينا احد أو نأتي الى أحد دون أن نضع في حسابنا في أحيان كثيرة حقيقة الموت أو الحياة ! .

لانني أخي يتأمل كل شيء في المحطة بتفجر نفسي حاد . وبسكون من يستمع الى صوت قادم اليه يريد أن يتبينه ..

أما أنا ، فأكاد ألمح الحياة عادت الى أبي .. هنالك خلال أطباق الاشواك النابتة المتكاثفة من زمن فوق عجلات القطار .. على البعد أراه نقطة في هذا المستطيل من الارض يتفقد شيئا تحت المركبات المغلوبة على أمرها .

قد يجيء لنا أبي بعد ذلك شيئا .. أو ينتظر أن نجيء له شيئا ، ويأتي ..

قد يتقدم الان مسلما بهدوء .. ابتسامته تملأ حياتنا مرة أخرى .. تشده روائح القهوة العربية في العيد شدها الى الاحياء ..

يرتشف فنجانه وهو واقف عنده شغل دائم .. يسألنا

عن أحوالنا ونسأله عن غيبته .. ثم يعود .. الى الحركة الدائبة .. حركة الحياة المستمرة ..

ما من شيء ينتهي أبدا .. الذي مضى نلفه بأعماقنا .. وتتابع .. تتبادل معه هبة الموت للحياة . ودائما تبدو بشكل ما ...

سألت الطفلة : « هل تنتظرون شيئا ؟ ! » .

* * *

التحرير

البيـــان :

أخيرا ، بعد ملاحقة وتحريات للشرطة الملكية دامت ثلاث سنوات بلياليها تم القبض على فرد واحد من أفراد عصابة القتلة المجرمين الخطافين بمســاعدة الامن العــام الوطني الباسل . ذلك الذي يجب أن يفخر به كل مملوك. لقد كانت مجموعة من الاطفال الابرياء ضحية وحشــية هذه العصابة التي أقدمت على القتل بطرق حيوانية عندما رفض آباؤهم دفع الفدية المطلوبة . هذا ، وان الشرطة اكتشفت أيضا ، وجود عصابة أخرى تقوم بالفعل نفســه يتركز نشاطها في العاصمة الناطقة بالضاد ــ سر من رأى ــ كما لوحظ أنه توجد عصابة أخرى ثالثة تمارس مثل هذا النشــاط الاجرامي في مدينة : « الحاكم بأمره » الواحد والعشرين بعد المليون . الشيء الذي يشكل خطرا جســيما على سمعة

بلادنا الطيبة ، الجميلة بأعين الاجانب الكرام . ويعطي صورة غير مشرقة عن مملكة السلطان السعيدة . كما ينفر هؤلاء الاعزاء الذين يشعرون ، عندنا ، بأنهم في ديارهم ، من التقاطر الينا باحثين عن قوة الاحساس ، والشمس، ولعبة الاشياء ، وكهانات الاديان بأنواعها والانتروبولوجيا .
إن الشرطة تسهر على العباد ، والمماليك جيدا تطمئن بخاصة العائلات المرموقة الاجنبية واللاحقة التي تكون رأسمال المملكة نصرها الله بأنها لن تدخر وسعا في حمايتها ، واستقرارها ، والضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه الاضرار باعتبار المقايسات المتوارثة والتعايش الامثل العتيق .

ـ التوقيع ـ
وزارة الارساط
والمصور السلطاني المنعم

الطالب يطير بعطاب الارتفاع :

في حذر وقف برهة بحذاء باب الدكان الذي يشبه شريط معي جائع . الوقت غسق ، والبرد اللاسع أكثر

ما يخفض الظلام في الليل . دخل ويداه في جيبي « سترته » البالية البنية كسوط قديم . كان شاباً في مقتبل العمر . دائما يبتسم ابتسامة صفراء قوية تبين عن أسنان ثرم معطوبة بإدمان التدخين . قميصه في الأعلى لم يعد يخفي ثقوبه . بنطلونه قدم في الصناديق الأمريكية المختنقة بملابس مستهلكة تعلم الرقص أو القتل .. زرقته استرق خلف بياض القحط الذي يزحف فيه . رقعته الجلدية في صورة وردة حمراء ارتسمت فوق إحدى ركبتيه. عندما وصل في تؤدة إلى الحاجز الخشبي الذي يقف بائع خلفه . لم ينتبه اليه أحد أول الأمر .. جانب الزبائن . حدق فيهم قليلا . أطلق يده اليمنى من جيب سترته . نفضها من الثلج . الآن ، يلمحه « عطية » . يبتسم له بدهشة غامضة . يعاتبه بكلمات مشتتة سريعة . ويرحب بعينين براقتين . الشاب تسع ابتسامته الصفراء . يشير بإصبعه الى لفافة تبغ . تتقدم اليه وتشعل عن طيب خاطره بعض الحشرات الدقيقة السوداء تطير فوق رأسيهما ، بدا يكشفها بجلاء ، الدخان الأبيض المتصاعد في قبة حلكة الدكان الفائرة . « عطية سلمون » بائع شاب دمث متفهم .

كثيرا ما يجتمع عنده الناس في دكانه المتواضع . يتحادثون في أمور الواقع ومشكلاته المتفاقمة . ينصت اليهم بجدية، يشاركهم شعورهم ، وسخطهم وأحلامهم بالشفاه والأعين والصدر ، حالما يتفرغ من زبائنه في أوقات كاسدة . ولا يعدم محاورات قصيرة ، أيضا ، مع زبائن عجولين يستطلع فيهما أمورا معينة خاصة وعامة . يحسن الإنصات الى كلام من يزوره في دكانه مسنين وشبانا ، دون أن تشغله خدمة زبائنه عن التعليق المناسب حال مغالطة ما . إنه يحبهم جميعا في هذا الحي الممتلىء بالكتل البشرية الكادحة . بضاعته من المواد الأساسية . إنه يعرف أنهم يأكلون جميعا من طحين أسود واحد لديه .

ينفض . « علية سلون » اللحظة يديه كأنه يصفق . يسلم بحرارة على الشاب الذي يعده من خلصائه . يسأل وهو ينحني على المنصة الخشبية العالية متكئا على ساعديه المتجاورين الأشعثين ..

ـ « أين كنت ؟. طالت غيبتك يا قادر !. »

ـ « كنت مسجوناً » .

ـ « أعرف شيئا من ذلك يا قادر . ولكن .. كل هذه المدة قضيتها في السجن ؟! » .

ـ نعم .

ـ لأي شي . أعتقد أنها التهم نفسها الموجهة الى بقية رفاقك . لقد كثر المعتقلون . والمفقودون حتى بتنا لا نستطيع ملاحقة الاخبار كلها أو الاحساس بأي اطمئنان كان . ثمة شي يدبر لنا في الخفاء بدأ يتوضح كما دبر لبعض الأحياء الأخرى بأساليب متنوعة .

ـ « هذا صحيح » قال الشاب مؤكداً . يلتفت الى الخلف في توجس حاد سريع . على بعد خطوات يجلس رجل فوق أكياس من البقول الجافة مرمية لدى المدخل الذي يشكل عتبة بوابة تطول عدة أمتار الى العمق . تكاد تكون معتمة في الوسط . ضوء متأرجح ينداق بالتدريج على العتبة ، كزيت مغشوش ملوث ، كلما اسود الليل ، يتسلل من مصابيح متبقية متباعدة في الدرب المركزي في حي « حدبة الجمل » ، الذي تلتحق به في نهايته في العراء مدينة من الأكواخ حيث يسكن عطية وقادر . ضوء آخر

معنكب فوق رأس قادر ، يصدر عن مصباح ضئيل عال في السقف يبدو لسانه المحمر داخل الزجاجة الصفراء ، كمم سكير بتقيأ . المكان كله يتخذ صورة كهدف بدائي ، تتراقص فيه الأشباح والظلال « رأرأ قادر حدقتيه يتفحص الرجل عند بقعة الضوء الزيتية . لاك لسانه في فمه قليلا ، وانتقل برأسه نحو صاحب الدكان الذي بدره قائلا في فمه وهو يتبادل ابتسامة ودمع الرجل في المدخل :

ـ « لا تخش شيئا . الأخ من بلد عربي شقيق . يعرف كل ما يجري . واكتوى . إنه منذ سنوات في ـ سر من رأى ـ . من حي مجاور ، من بضاعتنا .

إذ ذاك ، لم ينشب قادر أن شرح قضية ، يود هو ، بداءة ، أن يحلل ملابساتها . يقول :

ـ أنت تعرفهم يا عطية . دائما ، يصتون في الدروب والشوارع . رحنا نعاني عسف دوريات إضافية . كل تجمع يزيد على الثلاثة في حينا وفي الأحياء المجاورة : « المقابر ، درب السل ، العمارة : الظلام ، السيل ، و .. و .. » . يعتبر مريبا . مثل موت قذر تنقض عليهم

سيارة الدورية ، وفي مركز الشرطة تبتل أجسادهم بعرق الانتظار والعذر . ثمة سين وجيم بإدانة مسبقة ملغومة . واحدنا يسرق من مدرسته تنزع عنه جلدة رأسه . آخر يقطع عن مورد رزقه وعياله . آخر يسقط في زنزانة عوض أن ينجح في طلب دروس الجامعة متهماً بقلة الأدب ، والتعقيد ، وعدم انتكاسه النظرات . شاعر ثقفته قافلة القرصنة بمساعدة مخبر في المقهى يجلس فيه ، رآه مع شلته يقرأ عليهم قصيدة لم يعرف حروفها من برك الخمر وملال الحشيش وسجايا السلطان المعز بسيفه . رأيتهم: جروه من الكتفين ، افتض السفك رأسه . بكت أذناه دما حتى أخرجوا من بالوعة فمه شلال الرفض . وآخر وآخر .. قد يفرج عن بعض هؤلاء بحسب الأحوال بعد مدد قد تطول الى سنوات في حين يبقى آخرون في حكم المفقودين .. وهكذا » .

يقاطعه عطية ، وإيماءات التأمل والانقباض في الوجه :

ـ « إذاً ، لا بد أنهم قد عذبوك كثيراً بعد أن قبضوا عليك ، كيف فعلوا ؟ »

ــ « المرة كنت وحيدا أستند الى سور الثانوية ، ادخن عندما انقذف نحوي ثلاثة أجساد كالكرات البلاستيكية الزرقاء اللامعة . فور بطني واحد بمسدسه ، يحذرني ــ على طريقة الكاوبوي ــ من القيام بأية نامة . الآخران عكسا يدي الى الخلف بقساوة . صرخت . وأنا أبرر بكلمات لا تعني شيئا الا التعبير عن التماعات ، اشتعلت في مفاصلي فجأة . تحاشيت . في أول الأمر ، النظر في وجوهم . وقد صدمتني تجربة رؤية العروق في اشباهها مرات سابقة . بل اتجهت بعيني الى شيء معلق متذبذب مجسد لألمي الذي يزداد بالضغط والعصر . تقوست الى الأمام . أو قل انطويت حتى راح وجهي يلعن اقدامهم . كل ذلك في رمشة عين ضوية لثية جافية فوق ما برز من عظام الكتفين المقلوبين صفت على أثرها حنجرتي . وجهي انتفخ بدماء فاسدة . قدم غليظة هوت على قدمي . حصرتني وأنا أحاول الإفلات انكسر صوت في اذني :

ــ لا ينفع معهم إلا الضرب .

آخر حكم على أمثالي بالموت كحل نهائي حاسم .

وجدت كلماتي :

ــ ماذا فعلنا . ماذا فعلت . قولوا لي . لم افعل شيئاً .

بدأت أرفع راسي . فمطت شيئاً ما سواعدهم .
أنت تعرف : الثيران الهائجة لا تتخاذل لكن تريث قليلا .
سائل أسود انصب على الرؤوس المتداخلة وأنا أتسرب الى الضوء شيئا فشيئا . لم أتعرف برجال هذه الدورية من قبل . حركت عنقي . نقاط رمادية وحمراء كانت تهتز وتتلامع وتنهض فجأة ثم تختفي على طول الشارع المغلغل في الأفق فكان لدي اعتقاد بأنه مهجور من كل شي ــ عدانا . تطاير لعاب متناثر :

ــ اسمك يا قذر .

ــ قادر أبو جمعة .

جحظ صوته : ــ كذاب . والله ، كذاب .

أحد الشرطيين اللذين ما يزالان يقبضان على ذراعي من الجانبين ، أكد لي ولقائد الدورية أمامي ناهراً ، كأنه يتشفى من ثأر قديم :

ـ بل أنت هو . رأيتك في صدر المظاهرة . أنا من الشرطة التي كانت تحرس مبنى الثانوية في حيكم الكريه قبل أن تبدؤوا اضرابكم ، وترموننا بالحجارة والزجاجات الوسخة . أعرفكم . لن تبتلعكم الأرض . اليوم حسابكم. كنتم تتصايحون بأسمائكم . أنت أشدهم شراسة في هجومك . سمعت كثيرين يصرخون : « تيمور » .. ولم تعدم من دلنا عليك من المقبوض عليهم من التلاميذ . قالوا : « إنك أنت : ـ تيمور عمر ـ » . لا بد أن تدلنا على البقية . نصطادكم جميعا ولو طرتم .. ولو ...

كان وجه القائد يحكي اندهاشا وقلقاً لغياب فكرة أساسية عن ذهنه المتوقد التقطها قائلاً وهو يسحبني نحو ناصية الشارع بعد أن أغلق فم الشرطي بإشارة حازمة : ـ

ـ بطاقتك . أين هي ؟

ـ ما عندي .

ـ ولماذا ؟

ـ لم أصل السن القانونية بعد . بقي شهران .

ــ ما شاء الله . ما شاء الله !!.

قائد الدورية قال العبارة الأخيرة مثل بغير تشنى .
وأردف في حنق :

ــ أين تسكن ؟

ــ بعيداً ، هناك ، في الطرف الغربي من الحي . في هاتيك « البراكات » من التنك التي تلمع في الخلاء عبر الأفق . مجرد أستار كامدة لستر العورات والسلام . أما أبي فليس هنا ، وأمي « غسالة » تخدم عند فرنسي . اسألوا من شئتم من أهل الحي !.

رائحة براز وتبغ أسود وحشيش انطلقت وتشتمل نافورة غسلت وجهي ، واخترقت خياشيمي ، حالما اقترب الرجل مني متعنتاً فيّاً . لا أدري ماذا سيفعل الآن وهو يزفر . الوجه الرجيم سدّ منافذ الحياة في رئتي .. كزّ على شفة راجفة ، في حين انقذف من النصف الآخر إصرار وقح لا رجعة فيه :

ــ كذاب . وألف كذاب .

تحامقت عابثاً .

ـ حسن . إذاً فأنت تعرف اسمي .

شق عليه استهتاري . صفعني بقوة . ملأ جمع يده بشعري . حاول اقتلاعها وأنا أتلوى مسجوناً بين الشرطيين . بصق وقال :

ـ ستندم . كلكم هكذا . ثم تقرون بكل شيء . هذا لإطالة عذابنا فقط . اللعنة عليكم جميعاً .. اللعنة ..

حد فرن « اليعقوبي » ، أمام بقالية « زاهي أبو فريد » انحبوني . كان الزاهي يتنفذ في العمق المعتم كعادته . انسحب بنداء القائد مهرولاً الى الخارج . عيناه زائغتان ، تهمان . لم يتجاهلني . عينا القائد تحولتا الى مصباحين كاشفين ، يعرضني بهما الآن سائلاً :

ـ تعرفه ؟.

كانوا قد أعادوا صياغتي من جديد . ومع ذلك قال : « زاهي » .

ـ إي سيدي . ابن الحي .

ـ أعرف ذاك . اسمه ؟

ـ قادر . سيدي . قادر أبو جمعة . سيدي . فقير على باب الله سيدي .

ارتعش القائد ، وبخته وهو يتصنع الدهشة بحاجبيه :

ـ من سألك يا رجل عن فقره وغناه . من يصدع رؤوسنا غير هؤلاء .

ـ عفواً سيدي . أمرك سيدي .

ـ أنت محاميه . قل !.

ـ لا . لكن ، أقصد ..

قطعت اضطرابه . قلت كمن يريد أن ينهي مشكلة لم تعد بحاجة الى بحث :

ـ والله العظيم أنا قادر أبو جمعة .

حاولت أن اسمعه صوتي بقوة فلم يلتفت إليّ . لم استكن . صنعت صوتاً ناساباً ذا دلالة :

ـ والله ، أنا ؟. أنا !.

شرطي ركلني برجله السمينة . انتفخ بياض عينيه وهو
يزجرني لاصمت . القائد منكس الراس يبدو أنه في ورطة :
وهو ينقل بصره بيني وبين زاهي وبين زميليه . ثمة طريدة
هامة تجسمت فيّ : يريد أن يقدم صيداً إلى رؤوسائه ،
فكيف يخلّي سبيلي بسهولة . لا تهم الأسماء . إنني
مناسب جداً . عيناه مخيفتان تركزان فيّ . ألسنة نيران
منها اندلعت في صوته المبصوم بالنباح :

ـ غلوه . واطرحوه في السيارة .

ثم قذف بنفسه الى الأمام في مرارة . تحفز الشرطيان
وراءه كالمخبولين لتنفيذ الأمر . وعندما طوّح بي أحدهما
مكشرا ، كانت السماء تساقط هراوات ...

بينما تتجمع الأمواج

وينذر الوادي بنبض السيل .

الشاب ذو السترة البنية ، يختلج : مثل أبواب التنك
المشقوقة التي تمر بها مدن الصفيح في مدينته « سر من
رأى » في وجه الريح . يفرط مصفاة لفافة التبغ المحترقة
منذ زمن بين أصابعه . يتحسس ساعديه . يطلب أخرى

بشفتيه المقفرتين . عطية سلوون يعجل في تقديم أخرى ، ووجهه يوحي بعمق إحساس منكسر . نفسه متمزقة تعاني لحظات ضعف وهوان ، في الوقت الذي تمتلك فيه قوة على المضاضة . تعلم دائما كيف يستحلبها ويتواصل معها . منذ سنوات أنقذها كما فعل غيره من كفنها عبر الألم والقمع ، يتوسل اليها كلما تمعقت صورة الحاضر القبيحة والمستقبل الغاشمة . يطوق عطية الفتى بعينيه . يقارب بهما حيرة الاسئلة المتبقية . الرجل عند الأكياس قرب الباب ، تحول الى ذاكرة تفيء بشيء مدمر . في رأسه ضغط ينطق بالمشاركة . وفي إضاءات عينيه تمجيد لهذا الفيضان الذي يعتري دورات الدم في أحضان الأكواخ هذه الأيام . لم يخف كل هذا على قادر ، بعد أن شب الرجل واقفا الى جانبه . وامتزج الثلاثة في ألفة . كان لقاؤهم داخل جرح واحد . الليل متقفف . رطوبة الجو الساحلي . وإنذارات الوضع بتلويحاته العنيفة . قطعت الأرجل من الطريق ، ومن الحانوت ما ساعد على الانشغال العميق والمستمر بالإنصات ويقظة المعاناة . ثمة سعال حاد مختنق يخرج قشور صدور محروقة لأهل

الدرب ، يرتمي في الفضاء الهارب من المدخل ، ثم يتناهى في دجى التماريج الدائخة . خاطر ملح مثل أجنحة غريبة سوداء يظل الثلاثة خوفا من دورية شرطة ، تعاجنهم وهي تسد عليهم باب الحانوت ثم تقبض عليهم . كان الألم ينفح في الأرواح والوجوه . ألم مثل هذا الشيء القاسي الحزين الذي بات ينغل في حياتنا اليومية الغريبة .. إن الرغبة في متابعة مجريات قادر غدت قوية . تستلقي في الصمت ، وتتكوم على شفتيه الجافتين . ثمة شفقة على عمره الغض ، الذي يتحمل العذاب ، ويلتحف الشوك . ثمة مباركة للحلم الذي يكبره فيهم .. من خلال الدخان المتكاثف . ينفض قادر ابتسامة تمزج المحنة بالصمود أكثر ما تعني السخرية . يسقط رأسه على صدره قليلا ثم يرفعه قائلا :

ــ « عندما عرفولي من ثانوية (حي حدبة الجمل) إزدادوا تطلقا بي . [هذه ثانوية الشغب] قال المحقق . و [هذا حي اللعنة] أردف متضايقا . سألني عن أسماء ؟ . عمن دعاهم مشاغبي الثانوية ! .. عن رأيي بالأوضاع السياسية ؟ وعن أسباب الاضراب الاخير الذي

يشمل بقية الثانويات الاخرى ؟ . عمن كتبوا عبارة :
« كفانا امبراطوراً واحداً عندنا » . وعمن قذفوا المدرسين
الأجانب بالحجارة ؟ . عمن حطموا الزجاج وكسروا
المقاعد ؟ ، أحدثوا هذه البلبلة القذرة ؟ . قال لي :
[إنني اعرفهم . لدي إقرارات كثيرة لكن أريد أن أتأكد
من مدى صدقك] . ثبت علي بأي شي . تجبر وهو
يلكمني قال لي مثلك لايستحق أن تصرف عليه
ثم سألني عن بعض المدرسين . »

وعن دعوة أحدهم الى (الفوضوية الثورية) ، وعن
إفعال المدرس .. « خالد الشاهد » بالذات ، فهو المشاغب
الاول على زعمه . من فئة المغضوب عليهم . مطلوب
بأي ثمن لأنه ضد رائحة الموت والنعاس في الاحياء
التي ليست جميلة في هذا البلد الجميل ، وغير سعيدة
في هذه المملكة السعيدة جداً بقصورها . هيه ، يسونها
أحياء « المتنزه » ، « والمنظر الجميل » ، و ..
« التبر » . إنه ضد (المعادلة) غير العادلة ، والعجيبة،
المتلبسة في كل حال من أحوال حياتنا ، يصرون على
استقرارها ، يغلقون بوابات القصر أمام الحلم وينكرون

فتاتنا في مملكة تلهو بنـا كمـا لـو أن فينـا ـ عطشا ولاديـا ـ لتقبيل الأيـدي ونحن محبوسون داخـل هياكل أكل الدهر عليها وشرب . إنـه ضد هذه الحرية التي يمارسها ـ الأجانب ـ في فصول الدراسة والمصانع. والشوارع .. والبنوك .. بصكوك سوداء . أستاذنا:

خالد الشاهد ونحن الطلاب : منفيون في مناهـج اللغة .. تحتفز المحتق فجأة بعد أن تركني الوذ بعـت افكاري مـدة هينة من الزمـن . وهو يصوبني بعينيه الـحديدتين . لكأنه سمع أفكاري . لوح بقبضة : (امثال خالد الشاهد وأمثالك يجب الا يعيشوا في هذا الوطن). قلت في نفسي « الوطن خاص بالخصوصيين وبأدواتهـم الغبية . لم تزل قـــة معروفة وغير معروفة لبقايا فيضانات الشر . » رفعت صوتي هذه المـرة : « نحـن لا نعيش فعلا » . جروني . سحبوا نـاني . حشروه بين أسناني وضغطوا ذقني الى الأعلى بآلة تشبه النير كرروا أسطوانة الأسئلة مرات . بقـوة ضربوني . كدت أتشكك حتى باسـي . كدت أسقط . انا لا أصدق أنهم حرروني الآن. لهم جولات أخرى معي بالتاكيد . القلاقل متسعة،والدنيا

قائمة في كل مكان .. ينفذون تهديداتهم بالعقاب الجماعي . فولي الحانوت علية يؤكد بصوت مختنق قادم من اغتراب ، وانفعال ، ومزاج ردىء .

حقيقة . ثمة نشاط للشرطة غير عادي بدا يجري على مرمى قريب من حينا . ظاهرة الإضرابات تغزو المؤسسات والإدارات والمجمعات والمدارس والمناجم . عطلوا الدراسة في أكثر الثانويات . الشرطة تتدخل لضرب التلاميذ والأساتذة . ثانوية « زين العابدين » في حي المسعودية سدت أبوابها لشهر فرضوا تعويضات على الجميع لقاء الأضرار والمحتفات . ولن يقبل دخول أحد إلا بإقرار خطي من الولي بعدم الشغب والإضراب . تكويهم تجربة سنوات الحرائق الماضية في « سر من راى » وبقية المدن الأخرى . إضراب التلاميذ توقيت مرعب لهم . وها هم ــ كما ترى يا قادر ــ يحكمون قبضتهم على البلاد . نحس بها أقوى في حينا المصدم هذا . الله يجازيهم . ولا بد من مبادرة من قبلنا .

لذع في الصدر يتحرك قادر على أثره في مكانه موافقاً في قولــه :

بالطبع . حي الضحايا . مساكين ومغلوبون وضعفاء . ومياومون وحراس للأبنية الخصوصين وفلاحون هجّرهم العدم الى العدم وماحوا سيارات وبائعون على العربات اليدوية أو بدواب مريضة ؛ وموظفون ألقوا في مصير غير مصيرهم عندما سُدّت في وجوهم أبواب التحصيل الدراسي نتيجة سياسة التفقير والتعليم . كل هؤلاء منغصون ، ومجرمون . ملامحهم التي لا يملكون غيرها لم تعد تعجب السلطة ولا مصوري السياحة . أولادهم مزعجون . لا يفرقون بين احتفالات أعياد الميلاد وبين أعياد المملكة العربية السعيدة التي لا تباعده . إنهم ـ من العموم ـ الخطرين .

يقول عطية في اتباع وتصميم :

الحياة غدت مستحيلة يا ناس . ونحن في صعود الى أسوأ . لكن لا بد ان نصل ذلك اليوم . لا بد .

يضيف قادر متحمسا :

أبي قال شيئا من هذا ، البارحة . لكن في ذهنه ان نترك الحي . قال : وقعت علينا الأعين ، ويجب الاختفاء في مكان

آخر . أبي يبغي السترة . أي سترة في ظلم فاضح !.
رفضت . صرخت في وجهه لأول مرة . قلت له : إنني
أحب هذا الحي . تحت شمسه العارية ولدت وبين مجاريه
درجت . لن أهرب من نفسي المصنوعة من ظروفه . أبي
لم يفهم ، إلا حين رأى إصراري واصرار رفاقي المطاردين
في الحكومة . لن نبقى أبداً ، كقطط عجفاء . تختفي . او
تضيع في الشوارع ...

سمو الشارع الخشن

على حصار الكلاب المعقوفة

الثلاثة يدخلون . في داخل كل منهم تربض موسيقى
كالتقصف البطيء .. السكوت ساد قليلاً . الأجساد
المتكومة اهتزت اهتزازات لها معنى . ثمة ذبذبات
تدحرجت في الصمت القابل لترفضها . صوت شيء مرق بخفة في
الخارج ، فلقل الضوء الأصفر ، فقطعه بحدة عند فتحة
المدخل الذي اتجهت إليه أبصارهم . ظلمة ضافية في
العيون والنفوس . فضول . وإحساس بسكين يعاند
نحتها شيء أن يتداعى . لم يطل تحديقهم . الحركة اختفت
في نداءات غير مفهومة . بدأت تكبر .

يعلق علية على الفور :

الم اقل لكم منذ صباح اليوم ينوون شيئاً خطيراً
يسعون إليه في خفة ودأب يقولون : « إنهم ينوون زرع
الأسلاك الشائكة حول الحي ».

ويقولون : « سيمنعون دخول أو خروج أحد بعد
المغرب » وقد يلقنونا درسا . الحالة تتعقد . سمعت ؟»

تنفرج أسارير قادر على غير توقع من الرجلين .
يضغط . فجأة : طرفاً وامضاً نشيطا في دهشتيهما ، لغرض
لم يبن لهما . يتسلق على الفور لهجته الساخرة قائلا :

نعم . وهل نحن أفضل من الشاهنشاه إزيا مهر
وحاشيته المبجلة : إنه يُطوّق . كل يوم ، بمزيد من
الرجال والأسلحة والأسلاك وكلاب الحراسة .. ما احد
احسن من احد . أليس كذلك ؟

يضحك الجميع بعفوية ومرح غامر ، ثم في تشف ، ثم
في أمل مبهم بما يسقطه « المثل » — بالمقارنة — على
أوضاعهم في المملكة .

يقول عطية بعد قليل في حكمة غير مازحة تماما .

الذي يطوق ولو بعد حين .

ثم ترقب كلاماً من قادر . لم يتكلم قادر . عادت لتسكن في وجه صرامته الباخرة . انفه العريض ينبىء بالقوة والصدق . الرجل الثالث يفضل أن يفهم ويشارك ويحترف دون أن يدخل في حوار مباشر . خيوط الظلام مع مرور الوقت تكدس الأثير والأشياء والمخلوقات في الحي .. تخنقها في رزمة واحدة . متنافرة الجوانب . الخارج هادىء هارب زلق مخاتل رطب . رائحة بول نفاذة تستريح عند أنوفهم محملة بقتار طبيخ رديء . هدير الشاحنات القادمة والأوامر النزقة وصدى ضربات المطارق جعل توقعات سخيفة لكن ممكنة تتجلى في خيالاتهم بانبعاث علاق بكعبين صامدين يحني رأسه الضخم وهو يعبر بوابة الدكان لينقض عليهم . اللحظة يبصق قادر باتجاه الباب كأنما يلعن الطغمة المسؤولة عن نمو نطفة مشاعر الخوف المترصد فيهم وبهم .. بسبب الإذلال والإدماء اليومي ، وسلب الحياة التي يجب أن يمتلك المسحوقون مصيرها بحرية .

وها صوت منخفض متشح بوصح لا إنساني يرسله عطية داخل الأفكار المتراكبة في الرؤوس التي ما تزال تتلقى الريح من المدخل بقلقلة وأعصاب مشدودة ، في حين استندت الصدور مع الاكواع على حوافي القاطع الخشبي المريض الذي يتصدر وسط واجهة مشتريات المحل بغتة يستقيم عطية خلف القاطع وهو يقول :

بالطبع ، جاءك نبأ « العصابة » التي تخطف الأطفال وتقتلهم ، يظهر أن أمامنا ــ نتيجة ما نحن عليه ــ مزيداً من البلاوي لايعلم اشكالها وألوانها الا الله ، يقول قادر :

أجل ، ومع ذلك فالشرطة لاتعمل جيدا الا حين يتعلق الامر بـ « مخصوص » كل شيء مسموح هنا ، ما حاشا السياسة ، افعل ماشئت من دونها يطل بك الأجل والعمر يقصر إذ لا تعرف كيف تنزلق بهدوء داخل قيد الشتة بعيداً عن الجهاز البوليسي ومحتكري مصائرك منذ سنوات ولم يُقبَض على « عصابات » قامت بحوادث رهيبة في كل مكان ، ثمة أشياء أكثر اهمية ، دائما ،

تسـعل « القوى » أما « الصـت » فغير معقول عندمـا
يتعلق الأمر بخطف أطفال « الكبار » . هنا ، فقـط ،
تحركوا بجدية . وهذا شيء سياسي تماما . كان الفقراء
وحدهم الضحايا . « العصابة » راحت تطلب « فدية »
طائلة . ــ عشرة آلاف ــ . لا يملـك الاب منها عشرة
دوانق أحيانا . ابي قال لي : (لو خطفوا أحد اخوتك .
وطلبوا الفدية ذاته . لسلتهم آخر أو يقتلونني ويريحونني
من هذا العذاب . ليذهب الى جهنم كل شيء) .

انظر يا عطية . غيرنا يملك قصورا هنا في ــ البلاد ــ
وهناك ــ في كل عواصم العهر والاستغلال ــ ، تصرف
عليها ملايين مسروقة من عرقنا وخيرات بلادنا .. مع ذلك
تطالعنا ــ وسائل الإعماء والتهجين ــ التي تخصّ سره
المقدس وحده ، لتحثنا ــ نحن ــ على التقشف والشد
على البطون . ومتى كانت ظروفنا المزرية تسمح لنا بغير
ذاك . كثيرون يلبسون رداء الظـلام ، ليصطـادوا مع
الحيوانات الضالة شيئا في قمامات آخر الليل .. في تلك
المناطق التي تنام في النهار . كم واحد يعيش دهره على

الخبز والشاي فقط ، ومسحة من الزيت إن وجد . كم من العمال تسرق دقات قلوبهم المكدودة ، كل يوم لتبني بها أحلام « الف ليلة وليلة » في منازل طبقة محظوظة تجمع ثروتها الهائلة بيسر وتبذرها بيسر ..

عطية يبتسم ابتسامة خفيفة ذات مغزى ، يقاطعه قائلا :

. إذاً . اسمع يا قادر . كان يا ما كان ، انتهى إلينا في آخر الزمان ، أن أحدهم بنى قصراً يحاكي إرم ذات العماد ، وأرسل إلى ما وراء البحار يطلب أنابيب ماء ذهبية ، فاعتقدت « الشركة المذهبة » ان في الأمر التباساً .. ولما طلبت منه التفسير والإيضاح ، ثارت ثورة الرجل ، ثم اتهم الشركة بالغباوة وانحدار المستوى .. وبالمناسبة هذا الرجل رباط حذائه من ذهب ايضا .

يقول « قادر » : اترى ؟ حتى هؤلاء المحتكرون الأجانب . لم يصدقوا « هذا السفه » . يؤكد عطية ايضا :

لو كان في قلوب هذه الفئة ذرة من « إيمان » يدعون حمايته باسم « الدين » لتأمين مصالحهم واستغلالهم ، والدين منهم بريء ، لما نسوا أن المبذرين كانوا اخوان

الشياطين . وصدق الله العظيم . إن قائمة المصاريف اليومية لكل واحد منهم تطعم عائلات عريضة لمدة شهور .

الكلاب حالهم أحسن من حالنا .

يقول قادر : وابتسامته المائلة المستوطنة شفتيه تاخذ حيزاً واسعاً من عضلة فكه الأيمن :

نسيت يا عطية نوعا آخر من الكلاب ؛ ما يساوي واحد منها ، أحيانا ، شعوباً ، ملايين من البشر أمثالنا .

نوع كان له على مر العصور أهمية قصوى وخصوصية، ازدادت مع ازدياد تنوع ألعاب الهيمنة والضغط وألوان القمع ومكافحة ما يدعونه بـ (الشغب) وإحكام الحماية والوصاية .. نوع من مهمته أيضا العمل على نشر تلك « الكلبية » .. في الداخل .. وفي الخارج .. إنه زمن كلاب الحراسة يا عطية . لكنه زمن « المنشقين أيضا » و « الفقراء » و« كشافي العورات المختومة جبذع أعور الدجال ــ المولود سلفاً في صلب ولي القبيلة المفروض فرضا . الموضوع أثار فيهم كوامن عدة من السبي القديم، ومرارة الأيام الباكية وحكايا العقر ، والعبودية

والاستغلال . في أول الأمر ـ أسلمهم الحديث الى مشاعر متورمة ببكاء أخذت تحشوهم في أكياس رمل ثقيلة ، قيدت أقدامهم كأنها مدفونة في بركة طينية كبيرة .
ثم خرجت جراحهم على أيديهم وأفواههم على أرجلهم ورؤوسهم . . وصفارات أفاع جائعة تحاصرهم تلس طريقها إليهم فظهروا مثل : جياد . بلا أعنة على وشك الانطلاق .
يعرف كل واحد منهم أي بؤس موتور . في حشا الآخر .
اية قوة ايضا تعالج نتنه يخطو بها نحو قلاع جبجبة محروسة بنباح لاينقطع بدرجات صوتية مدروسة ومؤمن عليها تسد على أمثاله الأمنيات وعبير الحياة إنهم يعيشون الآن زمنهم على الرغم من تزيف يومي من النقمة والسكن ومختلف أوجاع الميلاد في طبقة معدمة مسوقة . .

يفكر كل واحد بأنه قد لا يمسك سنابل الطقس الجديد الطالع . .

قد يمضي ، لكن يوما ما : على الرصيف ، على أفاريز الطرقات الهائجة ، تلتحم اصدقاؤه مع الذين عمروا الأرض بعد أن ولدوا من خاصرته المطعونة بقرون تيس القبيلة العربي ، المهجن . يقول قادر موجها كلامه الى عطية :

يجب أن نرى الجماعة . قد تتعرض لاعتداء أيضا . نحاول أن نتدبر الأمر باكرا .

يقول عطية :

صحيح . تماما . هذا ما سأفعله . سألحق بك بعد أن أوضّب الدكان .

غدت اللحظة مثل غمامة مشبعة بأثقالها . يصافح كل واحد منهم الآخر بصمت وحميمية كأنه يعاهد . تقتات العيون من سراج اللهب في الأعماق . تقول الحلم . تركب الحلـم ...

الآن ، تخرج الأكواخ لتحتضن الموت وهي تحتضن نسائم الصباح المطل .

قادر يمشي من باب الدكان صبا . كأنه نافذة تفتحت فجأة ملء رئتيها . تسمع قليلا الى نداءات بعيدة في أطراف الحومة ، والى آلات الحفر اليدوية تثقب الأرض بعناد . أصوات محركات الشاحنات تجتر : تهدأ أو تشتد . طبلة كثيبة تثيرها كلاب الحراسة الصغار هذه الليلة . يمضون في الحصار والمواجهة الى ابعد الحدود .

يبحثون عن المتاعب وستلقاهم كالزنك المحمى . يطلق صيحة قوية عبر سياط الليل الملتفة حوله . يضع يديه في جيبي سترته فيقدر بذلك على ضمها الى صدره العاري معوضا ثقوبها وانحلال ما تبقى من أزرارها وحين أخذ يغذ السير دخولاً في عمق دياميس ممرات الأكواخ المضيئة بحيويتها المتأخرة إذ لم تستسلم باكراً للنوم في ذلك المساء — راح يرقص فؤاده .. يركب تخوم أنشودة حب .. وبحر .. وأبواق حصاد في أفاريز لم تعد تغفو كئيبة عديمة الحيلة . أنس لأعماقه أنسا عجيبا مدّه ليلمس تلك الأعماق في الأكواخ التي يسمع لحنها الحي الساهر .. فيجد فيها نفسه . غداً يا قادر ترتفع المناجل . كلاب الحراسة تريد أن تسترخي عند الأسلاك الشائكة التي تسور الحي. تركم نعاساً أكثر من تيه المحاجر .. تحتك أعضاءها المتدلية بفعل شبق انتصار الطغيان وادواته ، وتبول بكراهة رائحة غادية ... حتى ينبت الطحلب في الطرقات وفي الأفئدة . غدا ترتفع المناجم . زماننا أقوى . الأكواخ على جانبيه . ثقبت الشرات صدورها وبطونها وأعجازها في فوضى وعفوية ، فباعدت قليلاً او كثيراً ما بين

ضلوعها المهشة من الصفيح الصدىء الأحمر الملوم من هنا وهناك . تظهر اليه اللحظة ؛ متواشجة أكثر منها مختلطة . زمزمة لحنها العميق يصل الى اذنيه مثل صوت آلام امرأة تضع ، فيشتق الليل . توقف مكانه . الآن لافرق لديه في ان يطرق اي جدار . ليدق ذاك .. أو هذا .. لكنه يعرف أين سيذهب الان . يصل كوخ « العنتوري » ، يطرقه : ثمة ــ يجيء صوت معجون بالنفايات لكن ملتمع بالصحو والتنبه أيضا .

من يكـــون ؟!

يجيب قادر :

قريـــــب .

الرجل الثالث من البلد الشقيق اعترضه شرطي أحمر الأحداق وهو في طريقه عند مشارف الحي حيث تتــم رية قاحلة ترمي بها أوساخ المدينة ومهملاتهـا . بعض اجزائها غدا محط أنظار أوراش متعهدي البناء المتبطنين العرافين الذين لم تخفت حركة مشروعاتهم السكنية مبلغ استيائهم وقرفهم وفقدان صبرهم وهي تزحم الاكواخ وتدل عليها . الشرطي يتشممه وهو يطلع على هويته.

. اخلى سبيله فقط لأنه من بلد شقيق • يحضره من زيارة الحي الى إشعار لاحق لا يعرفه • راح يقطع مسافة في درب ترابي صاعد بسبيله الى حيث يسكن قريباً من حوافي المدينة القديمة عند بداية الأتربة المغفرة السارحة حول احياء الصفيح • ااه تواريه شيئا فشيئا • تفرقع تحت قدميه اشواك يابسة وعظام وحجار • أحس بقيظ نظرات الشرطي تكوي ظهره • ثمة رائحة دم فائر أخذت تنتشر حواليه وتزحم أنفه • عويل تنقله الريح • بكاء اطفال يدور في المدى • الظلمة توحش قلبه أكثر • أصداء من الخلف تود أن تردده إليها هي من تباريحه • يلتفت الى وراء ثالات بعض الضياء تهوي من السماء باتجاه حومة الأكواخ التي تبدو عبر العتمات كأنها تحترق بأضواء الشاحنات الحاملة للعتاد والأسلاك الشوكية . وبغيرها من الأنوار الكاشفة لأماكن الحفر المخططة بشكل دائري • يبدو حي حدبة الجمل الآن مثل جزيرة غائصة في الظلمات تحترق على تخومها في صمت متخبط اليم • البنايات المرتفعة على بعض الأكواخ القميئة تركلها في لؤم كأنما تدحرجها الى هوة لا قرار لها ، تسحقها في

جوانب أخرى . كشيء مستباح لا يستحق الحياة . يفكر
من يدري ماذا سيحدث غداً ؟! ألا يخجل من العودة سالكاً
هذا الطريق ليمر — كما اعتاد — على صاحبه « عطية »؟
بعد أن تخلى عنه في وقت لم يعد هناك شك في حاجته اليه.
هل يمكن أن يتخلى الإنسان عن نفسه ويزعم أنه لا يعلم
ذلك ؟ لطالما هزه عاطفته كرم « عطية » وصبره على ضيق
ذات يده ، وهو يطلب من دكانه بعض الرمق ، في الوقت
الذي يعرف هزال إمكاناته وقصور مدفوعاته للذاهب .
لطالما شعر بشيء واحد عفن يزداد تفسخا فيهما يوماً بعد
يوم .. وبقلق لا أب باحث عن خلاص لم تعد تخفيه بينهما
الكلمات . لم يبق لديهما شيء يبكيان عليه . يعين أوان
العزم والاختيار . ليس من أجلهما على الأقل ، بل رحمة
بتلك الصفرة الدائمة التي تعطي سحنات وعيون أطفال
عطية ، فيستحضر بها وجوه أبنائه في بلده البعيد . من
يدري ما يجري غداً ؟ عندما تمتهن كرامة الإنسان إذ
يحشر خارج الحياة ، تسد الأسوار العالية وجهه وهو
يسعى من أجل قوته اليومي ؟؟.. او عندما ستتخذ
إجراءات جذرية مجرمة ضد أي إصرار من قبل المعلمين

والتلاميذ على اقتحام أبواب الثانوية في ظاهرة الحي حيث يقبلون عليها من جهات مختلفة مسحوقة .. أو حين تنتهك حرمات التنفس والزيارة والاستقبال ورؤية الأفق الذي اعتادوا على انسراحه وتعامل كلاب الحراسة معهم على أنهم حيوانات غبية مسعورة اشداء على حظيرتها الى حد القتل ماذا يحدث غداً ؟ عندما تعاني الحومة من ضغوط قطع الماء وحرمان الأكواخ من « جب السقاية » الوحيد الذي يظل الزحام عليه طوال النهار منذ الفجر والى ابتداء الليل ، ومن التموين والانذار بالتشريد، بخاصة وان الضغط الأخير موضع بحث وتهديد يمارس عليهم منذ زمن ، فغدا تنفيما يسوّد حياتهم الآسنة أكثر بخطوط جديدة . «وجاءت فرصته الآن للتنفيذ في قوة « الأشرار القتالون هل يدرون ما معنى أن تشرد مع عيالنا ونهلك في العراء » .. هكذا قال له عطية ذات يوم ولا بد أن يتوقعوه حين لا يحنون رؤوسهم للاسواط . فالأكواخ بناؤها ليس قانونيا ، ومخفقة على الصعيد الفني . و « سر من راى » مدينة سياحية يجب ان لاتصدم المناظر الوقحة والكريهة أذواق ومشاعر من جاؤوا يبحثون عن الشمس والجمال والعجائب والبياض .. هؤلاء الذين

طالما التقى بهم في الدروب بنظاراتهم المكبرة وآلات تصويرهم الشية وأنوفهم القططية المصرة تشي بالتقيب والاشتمام الخائن . وبسراويلهم القصيرة الكاشفة عن أفخاذ متخمة بالتغذية الجيدة ومقشرة باستتاعهم الجيد على الشواطيء . مدن الصفيح العائمة على هامش الحياة تنتشر كظلال غريبة خارج الموت خارج الحياة هنا وهناك تقوم رمزاً على مصادرة الأرض والخبز والسكن والحرية . غدا ، يعرف أن الحومة ستقدم العربون عن بقية المهشين بالتعسف على أنهم أحياء . «بالمرصاد لاتخاذ القصاص اللازم من المستبدين والقامعين ، وتؤكد أوان الأوان للسير الى النهاية لقلب كل شيء رأساً على عقب . عندما خرج من بلد . يسعى تحت وطأة الحاجة ليعمل في مناكب الوطن المتخلع يبحث عن اخضرار ما موهوم ، لم يكن يعلم أنه مباح أينما حل ، وأنه على الرغم من بعض قوافل محررة بقي يرى ارتعاشات الألم والهموم التي وصمت وجوه أهله هي هي في كل أفق يسعى اليه لكن الحزن والحصار في « سر من راى » قد بلغ مبلغه . أحيانا يشعر أنه لا أمل في مقاومة جبّاة الأرواح والمصائر .. يتسائل

الفقراء في كل أرض .. يتمائل الزبانية .. لم يعد يجـد
قدرة في متابعة أي شيء . ليـس لديه لذاذة من أي نوع .
حتى جلسـاته بين الحين والحين مع « عطية » تؤدي الـى
وعي همتي .. يتحول أحيانا الى بحران من الصمت المنفي
مثل جرذان مع كل اتجـاه ينتمي بصدمـة رأس في سـد
مخشوشن . لا بد من الزحف على قلاع النفي والضـلال
المنهوبة من المحرومين . ثمة اشارات منه الآن . اضرابات
عارمة في عدة قطاعات : التعليم ــ الصحة ــ السـكك
الحديدية ــ المناجم ــ النقل ــ التجار الصغار ــ الميناء ــ
بعض مناطق الفلاحة في الجنوب .. هذه القطاعات وغيرها
تحولت الى مراكز جلب واستنطاق . ادارته حيث يعمل ،
بدأت تهيء له ملفا خاصا جاهليا تسهل به عملية طـرده .
يشعر بأنه غير مرغوب فيه . « اذا كان لديك مطالب فلتجد
في بلدك من ينصت اليها . نعذرك أخيرا .. » . الأغنياء !
هكذا دائما الاشرار . في كل أرض يملكون وحدهم الحكمة
الحاكمة . يبقون على السنتهم فقط غير مقطوعة . منـذ
أيام استعدوا عليه رئيسه المباشر . حاول أن يستفزه فـي
مواجهة سافرة . العمال وقفوا في صف ضـدا عليـه .

المحموسون هم هم في كل مكان . الادارة تمارس الضغط
على « الشاغبين » للعمل دوما في الليل . انها تعلم أن بقايا
الغرائب حيث يسكنون في الأحياء الشعبية او في نتوءات
حدود المدينة ؛ لا تيسر لهم اية امكانية للنوم المريح .
عدة عائلات في فن واحد . وسلاح الارهاق يعمل فعله
في السمار . كم يؤلمه الضيم الساكن في الوجوه المكدسة
في تلك الشاحنات الخانقة ، تلك التي تحملهم كل يوم الى
المعمل ومنه . علب سرين وسخة . بعضهم يضطر الى
التمسك بالمصعد طول الطرق البعيدة اللاهثة بدفء وشوق
الى ساعة حب لاتمت الى زمن عملهم . آخرون تظل
أنصافهم طائرة مع الريح كثيراً ما تخون أحدهم قواه
المستهلكة دون رحمة وهو متشبث ضارع العينين مبهورا
بالصمت والحزن والقهر . فيسقط مخلفاً صرخة أشبه
باللعنة يبتلع بعضها صوت تحطم الرأس والصلب قبل أن
تكتمل الحروف . الشاحنة عجلة تستعمل في نقل السلع
أيضاً . السائق فاقد الصبر أبداً . دربوه وهجنوه . كثيرا
ما غادر المعمل قبل الوقت الذي يسمح للعمال بالوصول
الى الشاحنة من مواقع العمل ، يترك وراءه من يقضي ليلته
تحت سور المعمل في طرف المدينة البعيدة ، تحدق به
الاخطار وينوشه الحر او البرد ، في حين يكبر تساؤله

في بيوت لا تعرف الانارة . كل شكاياتهم رفضت في المدة الأخيرة . اخذت الادارة تماطل في تأدية الاجور ،وتطلب من العمال أن يتدبروا وسائل المواصلات بأنفسهم ، فيهذه الأيام راحت ترص العمال مددا زمنية طويلة أمام شبابيك الأداء المالي في أوقات ضيقة موحية للشاحنات حتى تغادر قبل أن تسلم أجورنا . تمزق صدورنا في الاضطراب . وتشتتنا ، بين لهفة الحصول على أجور عرقنا ، وبين لهفة الوصول الى مساكن الليل التي نود أن نقضيها ببعض الفرح .. جهاز الضغط البورصي لا يسلم . افتعل سرقة بعض الدراجات النارية لفريق معين من العمال . يريد أن نتخلى حتى عن تلك المطالب الاساسية في زيادة الاجور ، وتمثيلنا في الادارة ، وفي اختيار النقابة التي لاتقع تحت نفوذه واستبداده . يسره أن نغرق في أساليب التفقير ، والتعويض ، ومشاعر المهانة والحاجة ، وارغامنا أن نسكت حتى على الظروف التعسفية التي تحدق بنا في المعمل ، أو خارجه ، حين يلقى بنا جثثا جافة على الاسفلت في طريق الاياب .. وهكذا جاء اضراب اليومين السابقين . اصرار العمال على تحقيق ملف المطالب يعني ذاكرة الكفاح .

التهديدات والمناورات وضغوط الظلام لم تنفع . القمع الوحشي والطرد والسجن والتوقيف قوى غليان القوات الحية المستنفرة لانتزاع حقوقها . هل من أمل ؟ . لم يعد يجدي الهروب عنده الى أي أفق ؟ . هنا أو هناك سيان . الأرض تدور حوله هو . الزمن لا يدور الا حوله ، وبه . اذاً ، أيبقى يدور بنفسه حول لا شي . هل ينتظر شيئاً في الأرض والزمن عليه أن يصنعه هو . لم يعد في الارض انتظار . ما اشتهي في قبضتي . الريح تميل حيث أميل . لا يجدي في الزمن انتظار . يتوقف بقوة معاندة . نبض من توضح طريقه أورق في في قلبه . شيء محبوس في تهـــه انفلت في قدميه . ضم في رئتيه دلف هبة ريح قادمة مـن جهة الحومة حيث صاحبه « عطية » . أيضا شعر بقشعريرة من يقدم على شي نهائي وحاسم . تدفق يأس فيه . استحضرت عيناه في الظلام زوجه وأطفاله من ركام الغربة والبعد واللوبان : ها أصواتهم تنز بالضياع والشوق والحزن . تخترق عباب الليل عن ثغاء ومزامير قلب يغني من خلف استار .. وجوههم كنجوم تطل مثل أعناق حمامات عبر زوبعة غبار أحمر عابس .. أياديهم مثل اشرعة مشنوقة

في اليم . يلتوي عنقه ، عيناه في كآبة مضيئة رائعة الشجو .
حركات يديه وجفونه صدى يجيب : « رحلتي تطول وتطول
فيما بعد تفهمون . » يعلق قدميه في النزلات المتعرجات صوب
الأكواخ حيث « عطية » . من يراه على البعد يحسبه شبحا
يحاذر شيئا أن يتفجر تحته . يدخل في الخفاء شيئا فشيئا
حتى لا تنبح عليه كلاب الصيد ذات الأثداء الثمينة .
قلبه ينزف بالحقد والتعب القديم والسفر في قطار متهالك
وينهمر بشيء من وهج شلال يشق طريقا بـدأت مياهه
تتزاحم فيه .. تنفر صدره غبطة حين اضطرمت بفيـاء
بعيد بعض النباتات الكثيفة النامية في عنف على أسطحة
بعض الأكواخ القصديرية التي اقترب منها . الصفيح تحول
بعوامل المناخ وتعاقب الليل والنهار الى تربة حمراء خصبة
بنت مع الاعشاب القصيرة كطمي معتم أخضر مهلل بعروق
صفراء . خطواته تقوده ، مثل سهم ، الى تقوب الأكـواخ
الساهرة . دوره هو ، هو ، هنا ، أو هناك ، ليس لديه
سبب حتى يؤجله لحظة واحدة . بل عنده ألف سبب حتى
يقوم به الآن . لو تخلى عنه فلن يسامح نفسه ابدا . لايمكن
ان يتلاشى المرء مهدورا دون ثمن . قرأ يوما في منشـور

لقايته مـا يعني : « ان اشتداد مـلـل الحصار الحقيقي والقمع يزيد من تصاعد مـلـل النضال ويؤثر على درجة حـركـة فعاليته . وان ارادة المناضـل الحقيـقي قـد يصيب حركتها الانحدار . ولكن ، لايمكن أن تتلاشى.. »
يحس برغبة عارمة في أن يمتد صوته صرخة وهو يـتقـ ضغوط الأعباء الرهيبة التي تنسي حديث تلـك المراقـد النته المتأكـدة على من فيها في الأغوار . « أعلنوا موتكم بصوت الحياة . فنحن داخل حصار الاوغاد . في عـداد الميتين » .

غدا ترتفع المناجل . يلاحظ بعض المتربصين في الزوايا من سكان العلب يراقبون كل من يعبر الممرات المدسوسة في وهن هذا الليل . ثمة تحركات لبعض الأجساد المنخطفـة تحمل شيئاً ما ، وتسـتتر بصعوبـة بتـلل أنوار كابيـة منعكـسة على بعض ماتبقى من لطخات كلس اشهب .أجساد ملتوية هالكية الأعناق ، لا يسعفها السير المظلم بما امتلات به برك .. بسبب عدم وجود بالوعات تصرف المياه الملوثة. أشخاص يتوجهون الى بتدممين ويضيعون في ممرات واحدة. الكل ساهر . حتى لغط الاطفال كان يصل الى أذنيه كانشاد قوي عذب اجتاز زمن البراءة . في هذه الاكواخ تكبـر الحياة بسرعة كما يكبر الموت وتتحـول المصائـر . يحس

بيكرات الاسلاك الشائكة التي صدمت رؤيته بعيدا وهي مكومة كالقنافذ الزرية ، تشرط عنقه وتلغ في دمه . هنا هوذا ، باب « عطية » تعرف عليه بعلامة خاصة . يدق بحذر وتدفق معاً . « عطية » لن ينام الليلة ! . سيفهم بسرعة . ينتظر يغلي اللهيب تحت قدميه . صبي يخرج، يتعرف اليه .

يقول الصبي :

ـ ابي جاء منذ لحظات . يجتمع مع الناس عند«عجوز علي » . آخرون ايضا عند « طاهر دياب » . ابي يقول السلة امتلات . لن تكون مهزلة خلف السور .

ـ دلني عليه ! .

يغيب الصبي قليلاً ثم يعود . يترك الصبي يتكلم في صحبته في الطريق المسربل بعلب الورق والكرتون . وهو يتهجى دروس الاشتقاق وذاريات الجداول يدخلان ممرا مضاء في أوله بفانوس مدخن مرفوع بعصا على سطح كوخ مدخله فوهة دائرية عريضة تبدو في النور الأقوى المسلط عليها كأنها على وشك الاحتراق . بعد قليل تستضيء نفسه بطقوس ما يدبر هؤلاء الناس .. أبناء مشافر حية وعصر

بجره وبره . يشعر بانه يطوي صفحات مدعوكة بالخيبة ، والرمد ، والنخاسة . سيعيد أيام المستقبل المرتقب معهم ، وفي شفتيه تقشر الحطب اليابس بشرارة الف مرارة .. الف مرارة .

● ●

حين بقي عطية ، وحيداً ، للحظات ، بعد أن ودّع الآخرين . خرجت من صدره آهة مهموسة ، شعر ايضاً بأنه موتور النفس ثقيل الرأس لكأنه يركب جملاً هائجاً ، شارداً بلا قتب . استقر قليلا في وسط دكانه حيث بدت مع بابها الضيق الواطيء مثل مطمورة على وشك أن تكون خاوية . بقايا أشياء وبقايا انسان . يلتحف بالظلمة أكثر . أشواك هموم تدبير بضاعة جديدة للرفوف التي تحطعليها الغربان ، تنخزه ، وترديه في حفرة كالكسيح . يفرح رئتيه الهواء اذ لا يتنفسه جيدا . التجار يصمّون آذانهم عن التوسل . لم يجد واحداً منهم يسلفه شيئاً .بعضهم طرده في اشمئزاز . رائحة ملحية من شواطيء اليأس كهربت فيه (حس البحر) الذي لا تعرفه الا حرفة البحر . رحم الله ، بل لعن الله اياماً قذفه أبوه صغيرا على رمال ممتدة ،

مخاتلة ، في حالة لا تعرف الاستقرار ، رمال متصلة بازرقاق لا نهائي لا يمكـن تجاهل عمقه السري وعبادته من أجـل العيش . كنت شاحبا معروقا ، ادخل كـل يوم لعبة البحر الجبار مـع أبي المكدود الملامح الخريفية ، ذلـك الذي أكل منه الدهر نصيبه والبحر نصيبه . كان ثمـة اعصـار متهما دائم في عينيه الموجعتين .. اعصار لا ترحم هوتـه مظاهر الكـل او السام البادية مني أحيانا بلا مهادنة او ملاينة. بقيت طويلا أبيع حراشيف السمك وبقاياه للـزارعين قبل السماح لي من صاحب المركب بركوب البحر . وعلى الرغم من رحلة الموت والحياة كل يوم ، لم أكن لأرى الا النزق في سحنات البحارة ، يزداد يوما بعد يوم ، مثـل ذلك الشي القاسي الذي يختزنه البحر في أصواتهم . بينمـا كانت تكبر على الدوام أفراح معروفة وغير معروفة في حياة أصحاب المراكب أو صاحب المعمـل الـذي كان يصنـع الـردين . اشارة تلكؤ واحدة او ضعف كانت تكفي لطرد أبي وغيره واحلال بحارة جدد أقوياء مكانه . كـم قضى أبوه أياما على جنبات الميناء حين تسوء صحته يسقي البحـر دموعه بعيدا على الشاطىء وهـو يرقب المركب يتحـرك

بدونه ، ينتظر مجهولا داخل البحر الذي يحجب مؤونتـه أحيانا بلا رحمة . القانون غير موجود ، مادام بالامكــان شراء كل من يحميه ، ومادام موجها داخل نظام عفن ، ضـد أمثال أبيه أصلا . ظلت الشـس بعد مـوت أبي تنتهرني جافة وأنا أتحمل مـسؤولية الاسرة مثلما تحملها هو من قبل. مصاريع الشمس كانت تزعق كاللظى وهي تبتلـع الظلال عبر مدى المياه المترجرجة الشاسعة من حولي كل النهار . شراع المركب يدفعه الكبت والحنق وشيئا مـن خـوف المصير . بقيت الرمال جهنمية تسـجل الـذل والاستغلال وتمتص الومض وتخرب شيئا من عشق البحر الذي كنـت اتمنى أن أحيا مده وجزره بشراعي أنا . كنت أشعر أنـني سليل الفقراء ؛ انتظر نهايتهم داخل عمليات غريبة استهلاكية على شاطئ حارق يمارس فيـه لعبتهم كهنـة ومقاولون ومندسـون أذناب ــ وكلاب وعناوين مرعبة ــ معروفةببيع الانسـان عبثاًآن استمر ! . عبثا !.رأيت بعين الفجرأن الجزر لا بد أن يكون مداً والمد لا بد أن يكون جـزرا . رأى الكهان والكلاب بدورهم شيئا من هذا الانقلاب وملامح التفكير في بياض عيني . معلم المركب سجل بطاقة ادانـة

في حقي . عندما كنا نملأ الشاحنات المرتقبة على الشاطيء
نمرها بما اصطادته أيادينا بالجهد والعرق ، كنت لاأتحمل
نظرات البحارة الذيـن لا يجدون الطعـام الكافي لهـم
ولأولادهم اذ لم تصل أصابعهم الجافة الا الى النذر القليل
من السمك بين الحين والاخر ، وفي أوقات متباعدة . وحين
طالبت بأن تكون لنا حصة متواضعة ، يوميا ، من السمك ،
وجدوني مشاغبا ، بطراً ، سريع التنفس . طردت . وجدت
نفسي في هذا الحي الفقير ، في الوقت الذي اشتغلت عاملا
في نقل وحمل وتغطية مواد الزفت ثم غاسلا للسيارات بعد
ذلك ثم عاملا في أعمال الهدم ثم في تشذيب الاشجار .أخيرا
تدبرت بعض المال ، واستطعت ان أبيع شيئا في هذا الدكان
لهؤلاء الذين نقشت الهموم ذهولا أبديا على وجوههم .
وحين بدأت تؤسيني معالم الذهول الموروث في الشفاه
والجلود أكثر فأكثر ، والكلمات المشنوقة خجلا وهي تطلب
شيئا من الدكان دون أن تقدر على دفع ثمنه .. اضطربت
أحوالي وانا أتعامل معهم بالدين .. أنكرني التجـار .
عيون اليوم سكنت محاجرهم ، حين كنت أرجو الاستدانة .
وهكذا كنت مرغما أن أعاين الخواء من حولي يوما بعـد

يوم . الى أين أفر هذه المرة .. ما عاد لي فرار وراضباب
أو سراب . اليوم هتكت الوهم . سالعن الوهم . أحس
اللحظة ، أنه يسحب ذبولا راعفا من أعماقه وهو ينقل بصره
على الرفوف المضمحلة . المكان تضوأ فجأة وانهمر بشيء
من نور غريب . صحا أكثر على توالد أصوات مفرقعة من
الخارج . ادرك أن مكان الدكان الذي يقف ويتكاثف في
داخله ، قد اتسع حتى شمل مدينة الاكواخ كلها ، بعد أن
غدا كل شيء داخل الأسوار الشائكة مهددا الى درجة
قسوة الموت .. حيث الكلاب ترغب نقش ذاكرة خنوع في
حياتهم لا تنسى . لم يعد أمان لأحد في أي مكان . ولا أمل
في براءة حياة ، ولد مصلوبا على خشبتها منذ الولادة
وسيظل كذلك حتى يقبر ، ويحمل أولاده من بعده أثقالها
المتزايدة . رأسه يدور على الرغم من نقائه الآن وهو يغلق
باب الدكان الخشبي دون أن يشد على المزلاج . الأشرار
يتشابه الأشرار في كل مكان . يحين قطاف شيء من هذا
الزمن الذي يدخلون وحدهم في صلبه . تتدفق خطواته ،
وأصوات آمره وموجهة تداخل أصوات محركات وضحكات
تثقل على النفس الى حد الاقياء ، تلولب حول عنقه .

ضحكات مخمورين بثياب لماعة يمدون لمذبحة غدا .. لشيء يجيم الحزن البشري القابع في قعر اعماق أمثاله منذأجيال جاهلية عربية معتمة . لهب أزرق دام ، يتراص أمام عينيه أيضا ، كألسنة البشر المقطوعة التي طالت عبر الدهر مثل نيران حقيقية متحدية رافضة . غداً سيرى الكلاب وجوها حقيقية . وجوها امتلكها جماعته دائماً فوق القهر .. جماعته التي يتعلق قلبه بها الآن وهي تسرى بوجوههـا امامه ، يقبل عليها مثل رضيع يهفو لرؤية أمه .

● ●

التحرير في قنوات عاربة

تحاول القوى المعادية لاستقرار هذا الوطن وازدهاره، والتي لا تجد ما يسرها على أرضه الا حين تكون على رأس الحكم فيه ، أن تهوّل الأحداث وتفتعل المشكلات وتربط الاضرابات بأبعاد سياسية واجتماعية واقتصادية وانسانية ، مما دفعها الى أن تفتعل الاضطرابات حيث تستطيع قذف سمومها في الثانويات والمصانع والادارات باسم الدفاع عن

مصالح الشعب وحقوقه وعن (الخدّام) الذين يدعونهم باسم : (طبقة القوى الشغيلة) . فاشتط بهاالخيال والكلام والممارسة وهي تمتد وتشرح أسباب هذه الاضرابات والمشكلات وتعمل على نشرها ودفعها لأهداف قذرة لاتخفى على أحد ولا تخدم الا الاستعمار والصهيونية وجيراتنا المتربصين بنا الدوائر ، وحيث تؤدي الى تفكك وحدة البلاد والعباد .

هذا بالفعل ما حدث عندما نشرت صحف هذه القوى الشريرة متباكية ، خبر ما جرى من انشقاق واضطراب وقلقلة لأمن البلاد في حي (حدبة الجمل) حيث القضية كلها لا تتعدى كون احدى البنات أشعلت (سيجارة) في ثانوية هذا الحي . وعندما طلبت المديرة منها أن تطفئها وأن تمتنع عن العودة الى مثل هذه الفعلة الشنيعة ، رفضت التلميذة الأمر ، مما أدى الى توبيخها وطردها فكان نتيجة هذا ان خرجت بعض التلميذات في مظاهرة احتجاج على ذلك لهوا وتقطيعاً للوقت . ثم انتقلت عدوى ذلك الى التلاميذ الذين استغلوا هذهالحادثة ليمارسوا ألعابا صبيانية في التكسير والرجم واحداث القلاقل والامتناع عن دخول

الصفوف . وبقي الأمر على هذه الحال أكثر من اسبوع
انتقلت العدوى بعد ذلك الى الحي كله والى علب الصفيح
حيث أخذ المتمردون يرجمون الشرطة بالحجارة عندما كانوا
يحرسون مبنى الثانوية بالتعاون مع التلاميذ والتلميذات .
كما اعتدوا على بعض الأفراد من ــ السكان الشرفاء ــ
الذين أرادوا أن تعود المياه الى مجاريها وتعود الطمأنينة
أرجاء الحي ليعود أبناؤهم الى الدراسة في المجدية وحدها
لهم .. مما اضطرنا الى تأديب الاشرار . وتلقينهم درسا
يليق باستهتارهم واجرامهم ، ومحاصرة الحي . ولقد
صادف أن شب حرق هائل بعد أيام اجتاح علب الصفيح
ابتداء من الساعات الاولى من الصباح مما ترك الفرصة
للقوى المعادية التي تدفع مثل هذه الاضطرابات الى
اتهام السلطة بالقيام بذلك . مع أن ذلك الأمر طبيعي .وحدث
مثله كثيرا.بسبب طبيعة الأكواخ المغلفة بالكرتون والورق
والمغطاة أحيانا بالخيش والمدعومة بالاخشاب والمزدحمة
بشكل تهدد فيه جميعها مرة واحدة بأقل حادث حريق
بسيط . مع العلم بأننا قد حذرنا سكان الاكواخ في هذا
الحي من مغبة هذه الأخطار كما نبهنا الى عدم شرعية بنائها

وانفركاهم مرات عديدة من أجل المغادرة دون جـدوى .
وهكذا يتّنا لشعبنا العزيز ما يجب توضيحه . عاشـت مملكتنا السـعيدة في ظل سلطاننا الهمام نصره الله . والسلام عليكـم .

دعـاء

في تلك الفترة التي اشتعلت فيها النـيران في أكـواخ الفقراء المتحدين الذين داهمهم الموت والتشرد والعطب جاء في خطبة لخطيب في يوم الجمعة ما يلي :

« أيها المتقون . البسوا الجلابيب الفلوكلورية ، فهي وحدها مقياس وطنيتكم وتمسككم بدينكم ، ودلالة على ارتباطكم بهذا الوطن الـذي يريـد المشوهون تحريفـه وتجديره . اطيعوا أولي الأمر منكم . واياكم والطمع فهو شر البلية وارضوا بالاقـام والاحوال . وابتعدوا عـن الحسـد .. و .. ارفعوا أيديكم الى الله معي داعين مبتهلين أن يحفظ لنا مولانا وامامنا وسلطاننا وأن يرحمه ويرحـم أجداده المنعمين وأن ينصر من ينصره .. اللهم انصر مـن

نصره .. انصر له ولا تنصر عليه .. انصر بـه ولا تنصر
بغيره .. انصره بنا ولا تنصره بغيرنا فيخذلونه . آمين .

مختصر ما جاء في تعليق صريح في جريدة شعبية :

سيبقى المحرومون والمطحونون شامخين أمام الارهاب والعسف والقتل هذه المرة متابعين تحديهم .ونحن القوة الشعبية بدورنا سنفضح ونكشف ونحاسب ولو تحولنا الى رميم . ان التمويه والتضليل ودفن الرؤوس في الرمال لن يجدي شيئاً غير تصاعد الرد . فالقمع والارهاب سيكون مفيداً جداً لأنه سيساهم بكيفية ملموسة في تسهيل وتمهيد حركة التاريخ الحتمية من أجل الفقراء والمسحوقين التي تسير دائماً الى الأمام . واذا كنا قد اخترنا طريق النضال فلكي نسير فيه الى النهاية .

نعـــــت

الفهرس